كتب ثقافية

دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث



بقلم عبدالله الركيبي

تقديم صالح جودت



كتب ثقافية

دراسات
في
الشعر الجزائري الحديث

بقلم

عبد الله ركيبي

تقـــديم

هذا الكتاب جزء من صميم تاريخ الثورة الجزائرية ، لان الادب في اية أمة حية ، لا يســتطيع ان ينفصــــل عن تاريخها . وقد اثبتت الجزائر انها في طليعة الامم الحية .

ونحن نخطيء ابلغ الخطأ حين نعتقد أن الثورة الجزائرية قد دامت سبع سنوات ونصف السنة ، وانتهت بتوقيم اتفاقية « افيان » .

فالثورة الجزائرية ليست وليدة هذا الجيل ، بل لقد بدأت منذ مائة وثلاثين سنة ، أعني منــذ وقوع حادث « لطمة المروحة » المشــئوم ، الذي استغلته فرنسا لانزال قواتها في أرض الجزائر ، لتستعمرها بعد ذلك طوال هذه السنين .

واذا كنا نعي من الصفحات القديمة لهـــذه الثورة ، قصـــة كفاح الامير عبد القادر الجزائري ضد الغزاة الفرنسيين ، فالحقيقة التي لا يجوز أن تغيب عن وعينا ، أن الثورة الجزائرية لم تخمد منذذلكالحين .

ثم انها لمتنته بتوقيع اتفاقية إيفيان • بل لعل الاستقلال السياسي هو بداية الثورة الحقيقية ، كما كانت الثورة المصرية ، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، بداية للثورة الحقيقية في مصر ، لا نهاية لها •

وقد حاول الفرنسيون ، على مدى العهد الذي اســـتعمروا فيه ارض الجزائر العربية ، أن يخربوا القـــيم الروحية هناك ، فأقاموا بين سكان الجزائر وأخوانهم من سكان المغرب العـــربي ستارا حـديديا ثم اقاموا بينهم وبين عرب المشرق ستارا حديديا ، حتى أصبحت جميع معالم الجزائر مجهولة لنا تماما .

وهكذا استطعنا ان نتصل بالادب الفرنسي ، من شعر ونثر وقصـة ومسرحية ، ولكننا لم نستطع ان نتصل بالادب الجزائري نظرا للنطاق السميك الذي ضربه الاستعمار حوله ، ولم نشتم من أدب الجـزائر طوال هذه الاجيال الا النفحات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية والتي أتاح لها الفرنسيون أن تعبر الحدود ، ليزعموا انها دليل على تبعية الجزائر التراث الفرنسي ، وعلى تاثر العقول الجزائرية بالثقافة لفرنسية .

وحاولوا ـــ الى جانب ذلك ـــ أن يقتلوا اللغة العربية في الجزائر ، ويمنعوا تعليمها الا في أضيق نطاق بدائي ، لكي تموت هذه اللغة ، تقديرا منهم لاهمية اللغة بين مقومات القومية .

واذا كانوا قد نجحوا في اشاعة اللسان الفرنسي في أرض الجزائر ، فانه مما يدل على عمق عروبة أبناء الجزائر ، أن اللسان العربي لم يمت

فيهم أبدا ، وان القومية العربية ظلت فيهم حية نابضة تدعوهم الى مواصلة الكفاح الى يوم النصر .

ولهذا الكتاب الذى بين أيدينا اكثر من قيمة أدبية . ولكن أكبر هذه القيم ، انه يكسر الستار الحديدى الذى ضربه الفرنسيون على أدب الجزائر طوال هذه السنين ، حتى عشنا نقرأ كل آداب العالم ، الا ادب الجزائر ، وحتي خيل الينا ذات يوم انه لم يعد فى الجزائر شعر عربى بالمرة ، من قلة ما ترامى الينا منه قلة تكاد تصل الى حد العدم .

ولهذا فان الاديب عبد الله ركيبى يفاجىء قراء الادب فى المشرق العربى ، بكتابه هذا مفاجاة سارة .

واني لانصح نقاد الادب فى المشرق العربى ان يتناولوا شعر هذا الكتاب برفق كبير ، ولا يقيموا دراساتهم له على الاسس النقدية المعروفة . ذلك لان سكان الجزائر ، قد حرموا الثقافة العربية أجيالا . وفرضت عليهم ثقافة أجنبية ، فتلكأت السنة شعرائهم وتلعثمت راغمة ، ولم تلمع منهم الا قلة محدودة فى أضيق نطاق .

ومع هذا فان شعراء الجزائر قد استطاعوا — وسط ظلام الاستعمار وبطشه — أن يتنفسوا وأن تخرج أنفاسهم حرى بالسخط على الاستعمار والاعراب عن الآمال القومية والدعوة الى الكفاح وان يرسموا — على مدى الأجيال — صورا صادقة للحياة القاسية التى عبرت بهم طوال هذه السنين .

اذن فلنقتصر فى الحديث عما فى هذا الكتاب من شعر على مهمة العرض دون النقد الى أن يشتد ساعد الجزائر المستقلة ، وتتحرر ثقافتها ، ويقف علمها العربى شامخا ، وينشأ الجيل القادم من بلابل الجزائر ، ملؤه شعراء موهوبون وادباء مأمولون ، ليرووا لنا القصة الكاملة فى أبلغ لغة وأجمل روى .

صالح جودت

المصادر الهامة لهذه الدراسة

١ ـ مجموعة البصائر القديمة والحديثة .

٢ ـ مجموعة مجلدات الشهاب .

٣ ـ مجموعة وادى مزاب .

٤ ـ مجلة الآداب .

٥ ـ مجموعة جريدة الاسبوع .

٦ ـ مجموعة جريدة المجاهد .

٧ ـ شعراء الجزائر للزاهرى طبع بتونس ١٩٢٧ ج ١ ، ٢ .

٨ ـ الشاعر محمد العيد آل خليفة ـ تاليف أبى القاسم سعد الله .
طبع بدار المعارف المصرية ١٩٦١

مقدمة

اذا كان الشرق العربي قد تعرف الى مدارس النقد الحديثة ، وظهرت فيه اتجاهات مختلفة للقصة من الرمزية والكلاسيكية الى الواقعية الحديثة ..

واذا كان أيضا قد ظهر فيه .. دعاة للشعر الحر الحديث ، الى غير ذلك من النظريات والقضايا الادبية ، فالمغرب العربي لم تقم فيه مثل هذه المدارس ، ولم تظهر به هذه الاتجاهات ، ولا قام منه من يدعو الى مثل هذه المذاهب الجديدة .. التي كانت سببا في معارك نقدية طويلة بين ادباء المشرق العربي ، معارك بين القديم والحديث . فهذه المعارك الحادة طورا ، والهادئة تارة ، لم يعرفها أدباء المغرب العربي ، ولم يحاولوا أن يخوضوها . فقد اكتفوا ـ في معظم الاحيان ـ بدور « المتلقي » الذي يأخذ دون ان يعطي ، ويتقبل الآراء دون أن يناقش ، ودون أن يتخذ موقفا مستقلا يعبر به عن وجهة نظره . وهذا شيء يلفت النظر ويدعو الى التساؤل : « لماذا لم تقم مثل هذه الحركات والمذاهب بالمغرب العربي ؟ ولماذا لم يتخذ أدباء المغرب العربي موقفا ايجابيا تجاه هذه المذاهب والقضايا الادبية الحديثة ؟ »

أعتقد أن سبب ذلك يرجع الى أن المغرب العربي عاش ظروفا أكثر اضطرابا وقلقا من المشرق العربي نسبيا . فالمعارك الحربية ، والاضطرابات السياسية الدائمة ... لم تترك له الوقت ليناقش أو يفكر في مثل هذه القضايا الادبية . في حين أن المشرق العربي كان يتمتع بنوع من الهدوء والاستقرار النسبي . وهذا السبب نفسه هو الذي يفسر « تأخر الادب » في المغرب العربي . ولا يعني هذا : انه ليس هناك أدب ، وانما يعني : ان هناك أدبا لم يبلغ المستوى الذي نرجوه له .

وقد حاولت في هذه الدراسة ، أن أكتشف بعض الجوانب في الشعر الجزائري ، وأن أزيل ما علق ببعض الاذهان .. من أنه لا أدب في الجزائر . وانما فيها ثورة .. ومعركة .. وحرب . فحاولت أن الفت الانظار الى ان في الجزائر أدبا .

فيها شعر يجهله الكثيرون من أبناء العروبة .. يجهله حتى الادباء الكبار الذين يتزعمون حركة الفكر والادب في العالم العربي . وحتى « الى زمن قريب جدا » لم يعرفوا عن الادب في الجزائر سوى اشياء قليلة ، بل : لم يعرفوا عنه شيئا .. الا بعد أن ترجمت بعض آثار كتابنا باللسان الفرنسي . وعندئذ فقط أدركوا أن في الجزائر أدبا حيا جديدا .

عرفوا ان هناك قصاصين كبارا أمثال « محمد ديب » و «المعمري»

و « كاتب ياسين » و « الحداد » وغيرهم من كتاب القصة .. الذين عرفهم العالم الغربي قبل أن يعرفهم العالم العربى ·

إما الأدب ، أما الشعر الذى اتخذ لغة الضاد اداةللتعبير والبيان . فهم لا يعرفون عنه شيئا ، وان عرفوا .. فمعرفتهم لا تتجاوز النظرة السطحية البسيطة · فليس هناك من قام بدراسة حول الأدب الجزائرى .. وحاول ان ينفض عنه غبار النسيان والاهمال . ولعل هذا الجهل والاهمال يتساوى فيهما غير الجزائريين مع الجزائريين أنفسهم ·

واذا كان هناك مبرر لغير ادباء الجزائر ، فليس هناك عذر اصلا بالنسبة للجزائريين — فنحن المسئولون — أولا وبالذات — عن تراثنا الفكرى ، وعن هذا الجهل والاهمال اللذين غمرا أدبنا ، حتى جعلاه مغمورا .. لا يكاد يعرف عنه الناس شيئا ..

انه من واجبنا ان نجمع هذا التراث ، ونبحث عنه .. فى مصادره ، ونجمع اشتاته المتفرقة .

ولعل هذا من اكبر العوائق لدراسة الادب الجزائرى ، فهو — الى الآن — لم يجمع فى مصادر يمكن ان يرجع اليها القارىء .. أو الدارس .. دون أى عناء وجهد ، فالادب الجزائرى — والشعر بالخصوص — لا يزال مشتتا فى ثنايا الصحف والمجلات والنشرات ، فلكى تعرف شيئا عن الشعر الجزائرى ، فلا بد أن ترجع الى هذه الصحف والمجلات التى قد تجدها ، وان وجدتها ·· فقد لا تعثر فيها على ما يفى بالغرض · ذلك أن هذه الصحف والمجلات قد مضت عليها عشرات السنين ، ثم انها لم تستمر فى الصدور بالتوالى . اذ كانت تظهر آنا ، ثم تختفى آنا آخر ، فطالما تعرضت للحجز أو الافلاس والمصادرة ·

انا لا اقول اننى تعبت فى جمع هذه المتفرقات ، فالذى يعرف هذه الحقيقة ، يقدر الجهد المبذول .

وبهذه المناسبة .. يطيب لى ان اشكر الاستاذ المؤرخ الكبير عثمان الكعاكى مدير مكتبة العطارين التونسية الذى أتاح لى فرصة الاطلاع على بعض هذه المجموعات من الصحف والمجلات ، وأشكر كل الزملاء الذين ساعدونى فى هذه الدراسة التى ما قصدت بها سوى ان اعرف بالشعر الجزائرى بقدر الامكان .

وبعد : فقد حاولت — فى هذه الدراسة للشعر الجزائرى — ان أبين : كيف انه كان تعبيرا صادقا عن حياة الشعب . وكيف سجل أطوار حياته · وكيف سار فى طريق التطور · بجميع مراحله التى مر بها .. أو مر بها الشعب الجزائرى ، من انطوائية فى أول الامر ، الى دعوة وعمل ، ثم الى يقظة وانتباه ، وأخيرا الى ثورة وانطلاقة جديدة ·

فالشعر الجزائرى الحديث ·· قد مر بمراحل اربع ، هى نفس المراحل التى مر بها الشعب ، فكان الشعر مرآة صقيلة ·· عكست — بصدق واخلاص — عواطف الشعب وانفعالاته ؛ فهو شعر الشعب قبل أى شىء آخر .

لم يكن شعر طبقة أو هيئة خاصة أو حزب بعينه .. وانمـــا كان لسانا صادقا . عبر عن آلام الشعب وطموحه واحلامه .

ومن ثمة : فقد خلا من تلك الارستقراطية البغيضة التى تبــدو لدى البعض من الشعراء الذين كانوا يتفننون وينشدون أشـــعارهم لاشخاص معينين . ومن هنا قلت قصائد المناسبات فى الشعر الجزائرى ، وكاد ينحصر في موضوع واحد ، هو : شعر الوطنيات وشعر السياسة ، وقضايا الشعب .. وهذا ما يفسر روح السخط والتمرد والتشاؤم . فى شعرنا الحديث .

لقد استمد شعرنا الحديث هذه الروح من حياة الحرمان والكبت اللذين عرفهما الشعب الجزائرى طيلة الحكم الاجنبى . فان كنـا نلاحظ فيه روحا تشـــاؤمية ، فانها من هذا النوع الذى يدعو الى الثـــورة والنضال ، لا التشاؤم السخيف الذى يدعو الى الانطواء والزهد فى الحياة . معنى هذا : أنه ليس شعرا تشاؤميا ـ بل العكس هو الصحيح ـ فهو شعر تفاؤلى الى أبعد حد . وانما توجد فيه « نغمة تشاؤمية » محببة . تبعث فى نفسك التطلع والاستفسار عن اسبابها ودواعيها ، كما تجعلك تحس بأن هناك انسانية تتألم وراء هذه النغمة » وتصبو الى غد أفضل ، وحياة أكرم .

وهناك الى جانب هذا كله ميزة أخرى فى الشعر الجزائرى ، هى انه شعر حماسي . فالحماسة تطغى عليه فى كل مراحله ، ما عدا المرحلة الاولى التى كان الشعر فيها ـ أن صح أن نسميه شعرا ـ شـــعرا انطوائيا سلبيا .. يدعو الى العزلة والفرار من الواقع ، والهروب الى الصوامع والمساجد . وفيما عدا هذه المرحلة ، نجد الشعر الجزائرى .. كله حماسة ، وثورة وغليانا . ثورة على الجهل والفقر والمرض ، ثورة على الحياة الاجتماعية العفنة ، ثورة على الظلم والاضطهاد ، ثورة على أعداء الجزائر . فروح الثورة أصيلة فى الشعب العربى فى الجزائر وهى ليست بنت اليوم فقط وانما هى تجرى فيه منذ الازل ، وسنلمسها من خلال هذه الدراسة .

وسنلمس الاسباب التى تعاونت على تغذيتها وتعميقها ، كمـــا سنرى الفرق واضحا ـ من حيث الصياغة والاسلوب ـ لكل مرحلة من المراحل الاربع التى مر بها الشعر فى الجزائر .

وانا فى هذه الدراسة قد مزجت بين النقد والتاريخ والدرس ، ولم أعمد للتاريخ .. الا كعامل من العوامل التى توضح الفرق بين شعر مرحلة وأخرى لأن هدفى الاول والاخير ـ من هذه الدراسة ـ هو التعريف بالشعر الجـــزائرى ، والكشـــف عن بعض ما فيه من طاقات تعبيرية ،، وتجارب انسانية .

وارجو ان اكون قد قدمت للقارىء العربى الكريم فى هذه الدراسة صورة ـ ولو أنها موجزة ـ عن الشعر فى الجزائر ـ حتى يعرف أن فى الجزائر : أدبا عربيا ، كما أن فيه : ثورة عربية كبرى .

والله ولى التوفيق ..

القاهرة فى اغسطس ١٩٦١

ع . ركيبى

الفصل الأول

شعر الانطواء

توطئة :

لا بد لمن يتصدى لدراسة الادب فى الجزائر — والشعر منه بالخصوص — أن يتعرض للعوامل التى ساهمت فى تطويره ، والاحداث التى مرت بالشعب الجزائرى ، ليدرك مدى تعبير هذا الشعر عن روح الشعب ، ومدى مسايرته للواقع الجزائرى . وهذا « بالطبع » يدعو الى أن نلقى نظرة مجملة على حيـاة الفكر ، وسير الأدب ، منذ الغزو الفرنسى .. حتى يومنا هذا .. لتكون دراستنا : أقرب الى الصدق ، والصق بالواقع .

والواقع : أن الشعر فى الجزائر قد مرت عليه عهود وفترات تأرجح فيها بين اليأس والأمل مرة وحـاول أن يدفع بعجلة التطور الفكرى الى الامام مرة اخرى .

والذى يلفت النظر هو أن هناك حلقة من حياة الشعر قد انقطعت .. أو كادت تنقطع ، وتبدأ هذه الفترة منذ بداية الغزو الفرنسى حتى أوائل هذا القرن .

ذلك أن آخر شعراء هذه الفترة كان الأمير البطل عبد القادر الذى سجل بعض الأحداث والوقائع التى عاشها الشعب الجزائرى فى حروبه الطاحنة ضد الغزو الفرنسى منذ سنة ١٨٣٠ حتى أسر الامير . ولن نتعرض لشعر الامير فى هذه الفترة فقد درسه الكثيرون ، وعرفه معظم المثقفين ولا يجهله الا الذين لا ينتمون للثقافة والفكر .

وقد يكون هناك شعراء ، وقد يكون هناك شعر فى هذه الفترة القاتمة فى حياة الجزائر السياسية والفكرية . ولكن الذى نعرفه : أن الشعب الجزائرى .. فى هذه المرحلة .. قد حيل بينه وبين الثقافة العربية ، اذ حاول الاستعمار الفرنسى — بكل ما يملك من قوة وسيطرة واغراء — أن يضرب حجابا صفيقا .. بين الجزائر وبين العربية والعروبة بغرض أن يمحو الجزائر من سجل التاريخ العربى مهما كان الثمن .

فبالاضافة الى خنق الحريات ، وكم الافواه الوطنية ، والضرب على ايدى الذين تنزع انفسهم للماضى ، أقول : بالاضافة الى كل هذا فتح المدارس الفرنسية ليفرنس الجزائر ، وسن القوانين الجائرة التى تجعل الجزائر جزءا من فرنسا . وسلك سـياسة البطش والدمار

تارة ، وسياسة الاغراء والوعد تارة أخرى . فكان من نتيجة كل هذا : خمود في القريحة وركود في الفكر ، وهمود في الارواح .

وبالرغم من ان الشعر في هذه الفترة .. قد فتر ، وخمدت روحه فان روح الشعب لم تخمد .. ولم تفتر ، بل تفجرت ، وقامت ثورات شتى في مختلف جهات الجزائر .

فثورات المقراني ، وأولاد سيدي الشيخ .. وغيرهما من الثورات التي وقعت في هذه الفترة .. انما كانت تعبيرا عن روح السخط والتبرم والكراهية للنظام الاستعماري المستبد ، ولأساليبه الوحشية .. التي حاول أن يطمس بها روح النضال في الشعب الجزائري .

وكرد فعل لهذه السياسة اتجه الشعر ــ كما يبدو من بعض النماذج ــ الى العزلة ، والانطواء على الذات ، واجترار الأحزان .. في صمت وسكون ، فظهرت المدائح النبوية ــ تماما ــ كما ظهرت في عصر المماليك .. يوم أن هبطت الثقافة العربية الى الحضيض ، ولجأ الشعراء الى الصوامع ، ينشدون السلو . والهدوء ، ويترقبون رحمة الله : ويظنون .. بذلك .. انهم قد أدوا ما عليهم من واجبات : لانهم فضلوا حياة الآخرة على هذه الحياة الفانية .

هذا ما وقع بالجزائر في هذه الفترة حيث اتجه الشعراء الى التقرب الى الله ، والى مدح الأولياء الصالحين ، والتغني بالتقوى .. ونعيم الآخرة .

ولا داعي للاستشهاد في هذا الموضوع ، لانه معروف للجميع ، ولأن الشعب العربي .. تكاد تتشابه ظروفه في هذا المعنى الى حد كبير .

وقد نلوم « نحن ابناء هذا الجيل » هؤلاء الناس الذين فروا الى الصوامع والمساجد ، وتركوا الشعب يناضل وحده ويقاوم ، وقد نحملهم مسئولية ما حدث لنا في هذه الفترة ، ولنا الحق في هذا كله ــ ولكن لومنا هذا .. لا يدعونا الى أن نجردهم من بعض المزايا ، وأولها أنهم حافظوا على العربية .. ولو بهذا القدر الضئيل .

قلنا : ان هذه الفترة قد امتدت في الجزائر حتى مطلع هذا القرن . ومنذ بداية هذا القرن .. حتى الحرب العالمية الأولى .. نلاحظ حركة وتطورا بسيطا في الشعر الجزائري . فهو ، وان لم يطفر طفرة كبيرة .. قد انفلت من الصومعة والمسجد لينطوي على نفسه . وهذا ما جعلنا نعنون للشعر .. في هذه المرحلة .. بشعر الانطواء .

الانطواء على الذات

قلنا ان الشعر في هذه الفترة ، غادر المسجد والجامع ، وابتعد ــ الى حد ما ــ عن الاضرحة والاولياء .. ليغلق على نفسه الباب ، وينظر الى الحياة من زاوية خاصة ، هي : زاوية الذات المحرومة .. والنفس المكبوتة . فقد اتجه الشعراء ــ في هذه الفترة الى انفسهم يبحثون عنها ، كما اتجهوا الى الزمان والدهر يحملونه ما يقاسون في هذه الحياة من شقاء وعذاب . وما يلاقونه من صدود وحرمان .

فالشاعر الأمين العمودي في هذه المرحـــلة ـ كغيره ـ يرى : ان الدهر . . هو سبب بلائه وعـذابه ، انه هو الذي يقف في طريقه ويسد في وجهه أبواب الأمل .

لماذا ؟ ؟

لان نفسه طموحـــة تصبو الى العـــلا .. وهو يفتخر بأنه : اذا كتب . . . فكأن السماء قد أمطرت ، اما اذا حدث . . فقد تفجر البركان. واذا نظم . . . فانه يأتى قراءه بما لم يات به حسان قبله .

نفسي تريد العلا والدهر يعكسها ... بالقهر والزجر .. ان الدهر ظلام
ان الزمان سطا عني بســـطوته ... كما سطا عن ضعيف الوحش ضرغام

وهو القائل :

فاذا كتبت يقال امطرت الســـما ... أو فهت . . قيل تفجر البركان
واذا نظمت أتيت قرائي بمـــا ... لم يأتهـــم قبـــلي به حســـان

واذا كان العمودي ساخطا على الزمان ، كافرا بما ضربه عليـــه من حجاب ، ومتبرما بهذا الدهر الذي يقف سدا في وجهه ، فهناك الشـــاعر المولود بن الموهوب ، وهو وان شارك العمـــودي في السخط والتبرم ، الا أنه يدعو الى الصبر والتأني ، لأن الزمان الجائر ســـيزول وســـتمر أيامه ، وستتبدل الأحوال ، فان بعد الحزن السرور .

اذا جار الزمان عليـــك حينـــا ... فصـــبرا . . فالزمان له سرور
ولا تنظر لحادثة ألمت ... فان الحزن يتبعـــــه السرور

واذا كنا قد رأينا : أن الشعر في هذه الفترة قد اتجـه هـــذا الاتجاه السلبي القاتم ، الذي لم يقدم حلولا ، ولم يشـــارك الشعب في مأســـاته ، ويحاول أن يخفف من الارهاق الذي يعـــاني منه الشيء الـكثير ، فهنـــاك من حاول أن يخرج به الى شيء من الشمول . . . ولكن في غير افصـــاح ، بل في صوت مبحوح ، ونغمة فاترة ، ونبرة خجـــلى . فالذي خرج عن ذاته .... في الغالب .... يتجه نحـــو الدين ، والقلب ، والضمير الديني .

والمعروف أنه في هذه الفترة : والى ما بعدها حتى الثورة المبـــاركة الحالية : كانت : الزوايا والتكايا وأربابهـــا . . . قد شوهوا الدين ... وألبسوه لباسا زريا ، واستغلوه لأغراضهم الخاصة . وطبقا لسياســـة استعمارية قذرة ، قد انتشرت الزوايا بشـــكل فظيع في الجزائر ، فـكل قرية لها ولي صالح ، وكل مدينة لها أولياء صالحون . وكان الاســـتعمار الفرنسي يشـــد من أزر دعاة هذه الدعوة التي الصقت بالاسلام التهـــم والأباطيل ... وهو براء منها ، وسنتحدث عن هذا في محـــله ان شاء الله .

قلنا : ان الشعر قد حاول أن يخرج من قوقعته الضيقة . ليتحـدث في أشياء جوهرية . وهذا الشاعر المولود السابق . قد حاول أن يمزق السكون ليخوض في موضوع هام ، موضوع له جلاله وحرمتـــه عنـــد

الشعب الجزائرى ، لأنه هو الملاذ الوحيد الذى بقى له ، والذى لم يستطع الاستعمار أن يقتلعه من نفسه وقلبه ... رغم انه قضى على معالمه ذلك : هو الدين ..

يقول الشاعر : —

ألا يا قوم ما الاسلام هذا — ودين الله رب العالمينا
أتى الاسلام يأمرنا بعلم — وسعى .. فى المنافع ما حيينا
وجمع بين دنيانا وأخرى — تدبر قول خير المرسلينا

والحقيقة : ان الشعر ... بعد أن كسر ومزق حدود الذات الضيقة ليتحدث فى مسائل جوهرية .. لم يعمد الى الأسلوب الأدبى الذى يحرك النفس ويغذى العاطفة ... انما عمد الى أسلوب الوعظ والارشاد ، وهو الأسلوب الذى طغى على شعرائنا فى أغلب الأحيان .

ولعلك تعجب معى « أيها القارىء الكريم » عندما ترى الشعر فى هذه الفترة قد أخذ يلتفت الى المجتمع ليساهم فى حل مشاكله .. فيتحدث عن المرأة ... فيرثى لحالها مرة ، ويحملها مسئولية ما يحدث للناس من مشاكل مرة أخرى ، فهى عند الشاعر صالح خباش — : انسانة تستحق العطف والرثاء ، فقد تركوها بين عباءة وشقاء ... مهمومة ، مغلولة الأيدى لا تستطيع أن تتحرك .. ولا أن تشارك فى الحياة لأنها مسجونة وراء الحيطان ، محرومة من كل شىء .

تركوك بين عباءة وشقاء — مكثوبة فى الليلة الليلاء
مغلولة الأيدى باسوا بقعة — محفوفة بكتائب الارزاء
مسجونة محرومة مزجورة — ملفوفة بملاءة سوداء

وانه لمن الانصاف : أن يسجل لهذا الشاعر هذا السبق فى هذا الميدان — ميدان المرأة — حيث كانت المرأة العربية عامة ، والجزائرية خاصة ، تعيش فى عزلة عن المجتمع ... حتى مطلع النهضة الحديثة ، فنحن نسجل له هذا السبق ، بالرغم من أسلوبه المهلهل ، وبالرغم من هذه (المكثوبة) !!! ولعله يقصد المكروبة .. أو الكئيبة .

أما العمودى .. فهو على نقيض خباش ، اذ يرى أن المرأة .. هى روح كل بلية ، وانها فتاكة ... حتى برب التاج والاكليل ، وانها همازة ، لمازة ، سريعة التقلب والتحول ، فهى لا تثبت على حال أبدا . فهى منبع الفتن والشرور :

هى روح كل بلية فتاكة — حتى برب التاج والاكليل
همازة ، لمازة ، صنناعة — للترهات ، سريعة التحويل
هى منبع الفتن التى عنها نهى — ما جاء فى الأحكام والتنزيل

فهذه النظرة للمرأة نظرة جاهلية ، تعبر عن رواسب من الماضى · · مازالت . . عالقة ببعض العقــول من أبنــاء العرب · فلا زالوا ينظرون اليها على انها ·· مصيبة لابد منها ، وانهـا مخلوق شرير لابد من ســد الباب في وجهه ، ولا بد من سجنه فى المنزل حتى نأمن شره ·

وعلى أية حال فقد رأينا من الشـــعراء من حـاول أن يخوض فى وانما المهم أن تتكلم وتظهر رأيك ولو كان خاطئا ، ولو ان الشعر فى هذه الفترة ··· لم يخرج الى أفاق رحبة واسعة ليشارك الشعب همـــومه وألامه ، فلم يتحدث فى الحيــاة السياسية بالمرة ، ولا صالح القضـــايا مواضع حيــوية هامة ، ويعطيها وجهة نظره ، فليس المهم أن تسكت ، الجوهرية · · الا بلمحات سريعة بتراء كما شاهدنا فى الأمثلة السابقة .

بيد أنه لا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن الزاهرى · · صاحب شــعراء الجزائر ، قد عالج بعض هــذه القضايا الوطنية ، ولكن فى غير شـمول ووعى ، ولابد من ان نسـجل له شـيئا فى هـذا الميدان وقد أعجبت بقصيدة له ·· قالها فى طفلة جزائرية لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها الغض ، عندما اختطفهـــا طبيب فرنسى يحمل درجة الدكتوراه فى الطب اختطفها من (سانتوجـين) بالجزائر العاصـمة ـ فاغتصبهـــا · وهى قصيدة طويلة ، تصـــور هذه الحادثة الوحشية ،التى تظهر بجلاء · · · اخلاق الفرنسـيين جميعا ـ حتى المثقفين منهم أيضــا ـ وكيف كانوا ينظرون الى الشعب الجزائرى · · ولن أنقلهــا كلها ، بل انقل منها هذه المقطوعة · · هذه البداية التى تقطر حزنا وألما ·

يقول الشاعر :

شد ما تلقاه من وقد الضـلوع   طفــلة فى مســتهل العمر
سامهـــا فظ من العلج خليع   شــقوة الأسر وســوء المنكر

ولعلك تلاحظ هذه النغمة الجـديدة ، وهذا التحرر من الشـــعر التقليدى الذى يبدو غريبا من شـاعر عاش فى بيئة تقدس المــاضى ولا ترضى عنه بديلا · وانا أحث القــارىء الـكريم ، أن يرجع الى هـــذه القصيدة ، التى تعتبر : انموذجا ، فريدا ، حيا · · فى هذا الموضوع الذى مثل مأساة انسانية فريدة · انها مأساة الجزائر كلها التى نكبت بأحقر استعمار ، وأقذر حكم ·

ان هـــذه القصة : تسجل العار الأبدى الذى لطخ سمعة فرنسا ، وسمعة الثورة الفرنسية · · · التى قامت لتحرر الانسان ، كما تدعى ·· فرنسا ·

والملاحظ فى هذه الفترة : ان الشعر . . قد خلا تماما من الأغراض الشـــعرية الأخرى · كالغزل ، والفخر ، والمــدح ، والرثاء ·· الى آخر ما تعود الشـــعراء أن يتعرضوا له فى أشعارهم · وسنبين أسباب هذا فى باقى دراستنا للشعر الجزائرى فى المراحل القادمة ·

وخلاصة الأمر : ان الشعر في هذه المرحلة ؛ هو : وان كان تعبيرا كاملا عن هذه الفترة الحالكة من حياة الجزائر ، الا أنه ... في تعبيره هذا .. كان قاصرا عن أن يصورها أدق تصوير ، ويعبر عنها أجمل تعبير . فقد رأينا من بعض النماذج السابقة ، انه شعر مهزوز في شكله ومضمونه . لاحياة فيه ولا ماء .. جاف كجفاف حياة الناس يومئذ . أسلوبه سخيف .. ركاكة في التعبير ، وخلخلة في النسيج ، وخمود في الروح ، وفتور في العاطفة ، ودع العروض . فهذا آخر شيء يمكن أن يهتم به الشاعر في هذه المرحلة ، لأن همه أن يقول شعرا ، ولو على حساب الخليل .. وبحوره .. وأوزانه .

والواقع : أن غرضنا الأول من هذه الدراسة ، أن نعطي صورة ولو كانت موجزة ... عن الشعر في الجزائر لنذكر الذين يجهلون حياة الفكر في الجزائر ، والذين لم يهتموا بالجزائر ... الا من حيث كونها جزائر الثورة .

وقد قصدنا في دراستنا هذه أن الجزائر كانت قبل الثورة متمثلة في تاريخها المجيد وفي ثقافتها العربية رغم جهل الكثيرين بهذه الثقافة .

وليس العيب على الجزائر ، وانما العيب على من لم يهتم بها .. وبحياتها ؛ وسنرى في القريب نماذج من الشعر الذي عبر عن نبضات الشعب الجزائري بصدق واخلاص ، وسجل آمال هذا الشعب الذي ضرب الرقم القياسي في البطولة والنضال . حتى نربط الحاضر بالماضي ، وحتى نفهم أن الحاضر وليد الماضي ، وان المستقبل وليد الحاضر .. ونعرف أن الجزائر : كانت دائما تحس بعروبتها وتحن الى الماضي المشترك ، وتهفو الى المستقبل المشرق الباسم ... الذي يلم شعث الأمة العربية ، ويرد لها ما فقدته .. من عز ومجد وحضارة .

وسنرى في دراستنا المقبلة تطور الشعر في الجزائر ، ثم تطور الفكر والتفكير لدى الشعب الجزائري ، وما مدى تعبير هذا الشعر عن عواطف وانفعالات الشعب ، وبالتالي : هل كان الشعر مرآة صادقة تعكس أحلام وآمال الشعب ، أم كان نوعا من البهرجة والتهريج ؟ ثم أخيرا : هل كان الشعر عاملا ايجابيا أم سلبيا في حياة الشعب .

كل هذا سنجد الجواب عنه في باقي دراستنا ان شاء الله .

الفصل الثانى

شعر الدعوة

(١) دعوة الى النهوض

ليس من شك فى أن الشعب الجزائرى قد عاش أحداثا ضخمة فى فترة مابين الحربين الأولى والأخيرة ، ففى هذه المرحلة جدت أحداث وظهرت أفكار جديدة نتيجة للحرب .

فقد شاركت الجزائر فى هذه الحرب ... مرغمة ، وقاتل الجزائريون .. جنبا الى جنب .. مع الفرنسيين ، وظنوا أنهم بذلك قد دافعوا عن الحرية والديمقراطية ، وبالتالى سيرد لهم شيء من هذه الحرية والديمقراطية . ولكن فرنسا قلبت ظهر المجن للجزائر وأخذت تناور وتساوم ، وتبذل الوعود تلو الوعود ... ولا شيء بعد ذلك .

ووجد الشعب الجزائرى أنه لابد من عمل جدى آخر غير الأمل فى عدل فرنسا . فأخذ يتلفت هنا وهناك ويستنجد ويفكر ، وأخذ يبحث عن نفسه وسط هذه الدوامة التى يعيشن فيها من جهل ، وفقر ، وتأخر ... فى شتى الميادين .

وكان لابد من ظهور حركات تعبر عن هذه التحركات الجديدة التى أخذت تهز الشعب هزا وتبعث فيه روحا وأملا جديدين .

فى هذه الفترة بالذات ظهرت معظم الحركات الوطنية والاصلاحية وانتشرت الدعوات ، وتعالت الأصوات من كل فج ... تنادى بالنهوض ، كما تنادى بالتحرك والتحرر من هذه القيود الكثيرة التى رزح تحتها الشعب أجيالا طويلة . فظهرت حركة « نجم أفريقيا » بزعامة الحاج على عبد القادر فى سنة ١٩٣٥ كما تأسست سنة ١٩٣٥ « جمعية النواب » تحت قيادة فرحات عباس وابن جلول . وبرزت الى الوجود عام ١٩٣٦ منظمة اصلاحية بزعامة الامام عبد الحميد بن باديس . باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » وقد قامت هذه الحركة فى الواقع ... بعد الحرب الأولى مباشرة ، وبدأت تدعو الى تحرير الدين من الوهم والخرافات التى مسخته حتى أصبح شبحا بلا روح .

وفى سنة ١٩٣٧ تأسس « حزب الشعب الجزائرى » ، بزعامة مصالى الحاج الذى اصبح فيما بعد يحمل عنوان « انتصار الحريات الديمقراطية » . وفى سنة ١٩٤٣ وقع ٢٨ نائبا بيانا برياسة فرحات

عباس ، وفي سنة ١٩٤٤ تم تاسيس « احبـــاب البيـــان والحرية » ٠ وقد جمعت هذه المنظمة كافة الحركات الوطنية بدون اســـتثناء وقد انقسمت هذه الحركة بعد ٨ مايو ١٩٤٥ ٠

ونحن لانريد ان نتتبع هـــــذه الحركات ونستقصي اخبارهـــا واتجاهاتها ٠ وانما قصدنا من كل هذا ان نبين فقط تاثير هـــذه الأفكار والحركات والاتجاهات على الشـــعر بالخصوص ٠ لنعرف مـدى تعبير هذا الشعر ٠ ٠ ٠ عن هذه الفترة ، ولندرك دور الشعر في هذه المرحلة من حياة الجزائر ٠

ولا يفوتنا هنا أن ننبه الى أن هذه الفترة قد حفلت بحركة ونشاط ثقافي هائل بالنسبة الى الظروف العصيبة التي عاشها الشعب اذ ذاك ٠ ففي هذه المرحلة ، ظهرت صحف شتى بالعربية والفرنســـية ، وانك لتعجب عندما تعرف أن صحف « الشـــهاب » و « البصائر » و « وادي مزاب » و « المساواة » و « الشريعة » ، وغيرها من المجلات الاسبوعية قد ظهرت في هذه الحقبة ٠

حقا اننا لنعجب كيف قامت هذه الصحف في فترة كان الجهل قد ضرب أطنابه فيها وكان الاستعمار يحاول أن يقضي على العـــربية بشتى الطرق الظاهرة والخفية ٠

وهذه الصحف ـ في الواقع ـ هي المصدر الأساسي لمعرفة النشاط الثقافي والفكري في هذه المرحلة ٠:

ان الأصوات كانت قد تعالت ، « كما قلنا » في هـذه الفترة ٠٠٠ تنادي بالاصـــلاح مرة ، وبالمســاواة والنهضة تارات اخرى ، وكثرت الدعوات والآراء ٠

نادى البعض : بالحرية صراحة ، ونادى البعض الآخر : بحـــقوق سياسية تحترم الحريات الفردية ، والبعض نادى بالاندماج ٠ وهكذا كثرت الفرق والأحزاب ، وتبع ذلك بلبلة في الافكار ٠

وجاء الشعر يعبر عن كل هذا ، جاء ليكون صـــدى معبرا عن كل هذا ٠٠٠ دون أن يرتبط باتجاه معين ، ودون أن يكون بوقا لهذا أو ذاك انما جاء ليكونمسجلا أمينا لأماني الشعب وآلامه ، وليقول كلمته ، وكلمة الشعب ، لا ينافق هذا ، ولا يجامل الآخر ٠

واعتقد : ان عدم ارتباط الشـــعراء بقيود الحزبية ، والغـــلال الاتجاهات ٠٠٠ قد أفاد هذه الحركات جميعا ، وبالتالي : أفاد الوطن بالبعد به ، عن خصومات ومهاترات لا تفيد الا العدو المستعمر ٠

وبالرغم مما يبدو من ان الشعر كان يساير حركة الاصلاح ، الا أنه لم يكن عبدا لها هي الأخـرى ، والدليل على ذلك : أن هناك شـــعراء لم يرتبطوا بفكرة الاصلاح ، ومع هـذا فهم يدعون اليها ، ويؤازرونهـــا ، ويدافعون عن مبادئها ٠ وفكرة الاصلاح هذه : هي التي نادى بها « الامام

باديس ، كما أسلفنا ، والتى تدعو الى نبذ الأوهام والخرافات التى ليست من الدين في شيء ، وتحـــارب أهل الزوايا والتكايا المعروفين بتبعيتهم للاستعمار ، والسير في ركابه ، وخدمة أغراضه ٠

ومن هنا رأينا أن نعدون للشعر فى هذه الفترة ، بأنه : (شـــعر الدعوة) دعوة الى نبذ الخلافات والحزازات ودعوة الى التكتل والوحـــدة ودعوة الى التعليم والثقافة ، ودعوة الى التحرر ٠٠ تحرير العقـــول من الوهم والجمود ٠

ونحن ــ عندما نقدم نماذج للشعر فى هذه الفترة ــ لا نقصـــد سوى أن نضرب أمثلة فقط ، ونعطى فـــكرة للقارىء حتى يطلع على بعض المظاهر ، ويعرف : كيف كان الشعب العربى فى الجزائر يناضل فى صمت وسكون دون أن يسمع به٠٠ حتى أخوته ٠٠ وأشقاؤه ٠ وليعـــرف أن الشعب الجزائرى لم يسكن ، ولم تفتر همته ، ولم يستكن ٠٠ فى أى وقت من الأوقات ٠

ثم اننا فى هذه الدراسة ــ منذ البداية حتى النهـــاية ــ لا نأتي بعينات لكل الشعراء ٠٠ ولا نقصد التعريف بالشعراء ، وانمـــا قصدنا الأول والأخير ٠٠٠ هو التعريف بالشعر الجزائرى أولا ثم عن مدى تعبيره عن حياة الشعب ٠٠٠ ومسايرته للواقع الجزائرى ، ولهذا فقـــد يكون هناك شعراء مجيدون لم نســـجل لهم أشعارا ، ولم نستشـــهد ببعض مقطوعاتهم ٠٠٠ مع اكبارنا وتقديرنا لانتاجهم ٠

ولعل المسئولية لا تقع علينا ، فهناك « من الشعراء » من لم نعثر له على قصائد في المراجع التى رجعنا اليها ٠ كما أن بعدنا عن الوطن ٠٠ حال بيننا وبينهم وبين شعرهم ، مع العلم بأن هناك من له ديوان كامل ٠٠ ولكن لم يطبع بعد ، لأسباب معروفة واضحـــة ، أولها : أن الطبع في الجزائر تعترضه عقبات لايجهلها أحد ٠ ثم أن البعض منهم ربما ما زال في السجون والمعتقلات ، وعسى أن تتاح لنا الفرصة ٠٠٠ لنتمم النقص الذى لم نتعمده ، وانما اضطررنا اليه اضطرارا ٠

معظم الشعر ــ في هذه الفترة ــ كان دعـــوة ملحة صريحـــة الى النهضة والأخذ بأسباب الرقي والتقدم ٠٠ فالشــــاعر « محمد العيد » يستصرخ فتية الوطن وأبناء الضـــاد فى الجزائر ، ويدعوهـــم الى أن يحكموا الرأى ٠

لمـــاذا ؟ ٠٠٠

لأن جيرانهم قد قطعوا أشواطا كبيرة فى طريق العلم والاختراع ٠٠ ووقفوا هم يترددون بين وهم ووهن ، يقاسون شتى أنواع الأذى والتجنى، وقد سكنوا الى الذل والاحتقار :

يا حماة البـــلاد يا فتية الضـــاد ... ترى هـــل لـــكم من الرأى مغن
ســـار جيرانكم مع العصر شوطا ... ووقفتم ما بين وهم ووهن
تحت شتى القوى تقاســـون منها ... ما تقاســــــون من أذى وتجن
أين منـــكم مهـــابة وانتصـــاف ... أم ســـكنتم الى احتقـــار وغبن ؟

والشاعر يوبخ الشباب الذى يدعى أن هذا الهوان الذى يعيشون فيه ... انما كان السبب فيه الاجداد . فالذى يسيء الظن بالاجداد أجدر به أن يحتقر . فهناك شواهد بارزات على ما كان للاجداد والآباء من عز وسلطان . اسأل « تلمسان » و «بجاية» و «تيهرت» و «القلمة» تخبرك بأن الفن قد ازدهر بها .. يوم أن كانت محط أنظار الشرق والغرب ، ومعهدا يؤمه الناس من كل فج وصوب .

في تلمسان ، في بجاية ، في تيهـ — رت ، في القلعة .. ازدهى كل فن
يوم كانت مهاجر الشرق والغرب — مثـابا كمعهـد وكحصن
وعليهـا من الملوك ذوى العزة — والبـاس كل مهـران فطن
دعموا البر، دعموا البحر..بالأعلام — من منشئات مـدن وسفن

ويستمر الشاعر فى ضرب الأمثـلة من ماضى الآباء والأجـداد ، معددا مآثرهم الخـالدة ، ومبينـا أمجادهم التى مازالت آثارها ماثلة للعيان .

أما الشـاعر رمضان حمود ، فقد دعا الشعب الى أن يسير للعلا والرقى لانه موطن الامجاد ، ومقـر للكرام الفضـلاء ، ويدعوه الى أن يرفع رأسه عاليا ، ويزاحم من علا نجمه ، ويترك الخوف للجبنـاء ، ويدعوه الى أن يطالب بحقه وبما فيه خير لبنيه النبلاء وهو اذ يدعوه الى كل هذا ... انما يرسم له طريق الدعوة . ويوضح له اساليب العمل ، فهو لايريد منه أن يطالب حقه بذل وهوان ، أو بالحرب والدمار والدماء بل بسلم وهدوء وهدى ، وبعلم ونشاط وذكاء :

موطن الأمجـاد . . سيرا للعلا — عشت حـرا يا مقـر الفضـلاء
ارفع الرأس وزاحـم من عـلا — وأترك الخوف لقلب الجبنـاء
وأنشـد الحق وطـالب ما ترى — فيـه خـيرا لبنيك النبـلاء
لا بـذل وهـوان وصـغار — لا بحرب ودمـار ودمـاء
بـل بسـلم وهـدوء وهـدى — وبعـلم ونشـاط وذكاء

وهكذا يبدو لنا من هذه المقطوعـة : ان الشعب الجزائرى .. لم يكن فى يوم ما من عشاق الدم ، ولا من تجـار الحروب . بل كان ... فى كل فرصة تسنح له ... يطالب بحقه بالطرق المشروعة ولم يعمد الى الحرب .. الا عندما استنفد كل الحيـل . وطرق كل الابواب .. فاغلقت فى وجهه . ولم يركب المراكب الصعبة الا بعد أن حيـل بينـه وبين حقه فى الحياة الكريمة ، والعيش الرغيد .

ويستمر الشاعر يضرب الأمثلة ، ويوجه الأنظـار الى الغرب ... الذى بنى القصـور الشامخة ، وملك الدنيـا ، واسـتولى على البحر والبر والهواء .

انظروا الغرب بعـلم ما بنى — من قصـور شـامخات للعلاء
ملك الدنيـا وما يتبعهـا — من تراب وميـاه وهـواء

وقد كان شعراء العرب تقريبا ، في هذه الفترة ، يضربون على هذه النغمة ، ويحاولون أن يوجهوا الافكار نحو العلم الذى أخذ به الغرب ففاز ... وأتى بالأعاجيب ، في حين أن الشرق سادر في أوهامه وخرافاته وأحلامه . وترى هذا ... بالخصوص ... في شعر الرعيل الأول من شعرائنا ، مثل : الرصافي ، وحافظ ، وغيرهما ... من شعراء العرب الذين عاشوا في أحلك فترة مرت بالشعب العربي .

وفي مقطوعة أخرى للشاعر نفسه ، نراه يصرخ في وجه ابناء جلدته ، فيدعوهم الى النهوض . ويتعجب : كيف يرضون بحياة الهوان ، التي هي حياة البقر ، ويعيشون في حسرة وألم . وينسبون ذلك الشقاء للقضاء والقدر . ويؤنبهم على حياتهم التافهة التي يسرون بها ، في حين أن شعبهم قد تردى في مهاوى الحفر . ثم يلتفت الى الشرق .. الى الوطن الأكبر .. هذا الوطن الذى ـ هو الآخر ـ يعيش في تفاهات مثل الجزائر تماما ، ويهدده بالوعيد ... اذا نبذ الدين وكفر بالمثل :

نهوضا نهوضا بني جلدتي	الام نعيش بطي الخبر ؟
الام ؟ وفي الأسر أرواحنا	ونحيا هوانا حياة البقر
أنمسي ونصبح في حسرة	وننسب ذاك الشقا للقدر ؟
أراكم تسرون بالتافهات	وشعبكم في مهاوى الحفر
أرى الشرق يسعى الى حتفه	اذا نبذ الدين ثم كفر

وكان الشاعر لم ير من أبناء جلدته ، ولا من أشقائه ، من يستمع الى ندائه ، ويصغي الى صوته المبحوح ، فيصرخ صرخة مدوية يائسة ، يطلب فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا ، أو موتا كريما يسر :

فيارب عجل بفتح مبين والا بموت كريم يسر

(٢) دعوة للنضال .

قد يعجب الدارس للشعر الجزائري ـ في هذه الفترة ـ عندما يعثر على شعراء يدعون دعوة صريحة الى الجهاد والنضال . وينادون بالكفاح من أجل الوطن .

ذلك : ان الشعر كان في معظم أحيانه ، يدعو الى النهوض والتحرر .. ولكن في هدوء ، واتزان ، وفي غير ما عنف أو قوة . ولعل هذا « كما أسلفنا » مرجعه الى أن الشعر لم يتقيد بأحزاب واتجاهات خاصة ، وانما كان ـ في غالب الوقت مرآة للشعب لا لحزب أو هيئة سياسية . ومن هنا كان الشعر الجزائري مرآة صافية عكست « بحق » انفعالات الشعب وآراءه في مجريات الأحداث التي عاشها .. واصطلى بنارها .

وقد يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من سوء الحال الذى عليه الشعب ، فيعدد النكبات والمصائب التي يتخبط فيها هذا الشعب :

ثم يختمها بالدعوة الى النضال ، والى الاستشهاد ، كما فعل « أمير الشعراء محمد العيد » • الذى تألم كثيرا من هذه الجوائح والرزايا ، وضاق بهذه الأغلال التى حزت فى ساعد الشعب ، وضاق ذرعا بدسائس الاستعمار ومكائده :

أصابتنـــا الجـــوائح والرزايا	**واعـوزت المـرافق والرفـود**
حنت أعنــاقنا الاغـــلال ظلمـا	**وحزت فى ســـواعدنا القيـود**
وأعلنـــا المظــالم والشــكايا	**فاخفتهـا الدســائس والكيود**
وانغضت الرءوس لنــا هزوا	**وانكارا وصعرت الخـــدود:**

بعد هذه المظالم وبعد هذا الشقاء ماذا بقى للشعب أن يفعله ، بقى له طريق واحد لامناص منه ولا هروب . بقى طريق النضال ليحقق نصرا وعزا ، أو موتا كريما :

فقم يابن البـلاد اليوم وانهض	**بلا مهـل فقـد طـال الرقود**
وخض يابن الجزائر فى المنـايا	**تظللك البنـــود أو اللحـود**

وقد لبى الشعب هذا النداء ، وقام يمسح العار •• ليعيش عزيزا مكرما ، أو يموت موت الشرفاء الأبطال •

أما الشاعر رمضان حمود ، فهو يدعو كذلك الى الجهاد ، فى غير ما تلعثم أو تستر أو تقية • مثل البعض من الشعراء الذين كانوا يهمسون بهذا همسا ويخافون التصريح ، فيعمدون الى التلميح •• خشية الموت أو السجن ، وسأنقل مقطوعة صغيرة لهذا الشاعر من قصيدة طويلة فى هذا الموضوع ، وقدأعجبت بها •• لا لأنها من روائعه •• بل لأن فيها نغمة حزينة ••• تتألم – عن صدق – من حالة الوطن •• وما يعانيه من أبنائه ، ومن أعدائه فأبناؤه لاهون سادرون فى ترهات وقشور ، وأعداؤه ينهبون خيراته وهم فرحون مطمئنون •

لن ينال العز شعب كالجمـاد	**فقد الاحســاس خال من شعور**
لن ينـال المجد شعب بالرقاد	**يترك اللب ويعنى بالقشــور**
انمـا المجـد قرين بالجهـاد	**ووئـام وثبــات فى الظهـور**

ونسجل هنا حقيقة للتاريخ ، وهى : ان بعض هذه القصائد من شعراء مزابيين ، اخوان لنا ، كانوا يتألمون لما عليه الوطن • ويشاركونه آلامه وأحزانه .. بالرغم من دسائس الاستعمار وأذنابه الذين حاولوا أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد • وكانوا يهدفون الى خلق طوائف فى الجزائر ، مثل : عربى ، مزابى ، بربرى • الى آخر هذه الدعوات التى سفهها الشعب ، وكفر بها ••• وبدعاتها الآثمين •

والواقع : أن هناك مقطوعات كثيرة لشعراء كثيرين قد ضربت على هذا الوتر ، وتغنت بالجهاد والنضال • ودعت الى وحدة الجزائر واتحادها ، وسيرى القارىء – فى باقى دراستنا – نماذج أخرى تؤيد هذا الذى ذهبنا اليه • وليس من وكدنا أن نكثر من ضرب الأمثلة وانما غرضنا الأصيل ، هو : اعطاء صورة صادقة لحياة الشعب من

خلال الشعر والأدب ، ومن خلال الفكر ، حتى يتابع تطورات الأحداث ويعرف نفسية هذا الشعب الثائر •

والحقيقة التى لايمكن اغفالها أو تجاهلها فى هذه المرحلة ، هى أن الشعر ، وان كان شعر دعوة أولا وقبل كل شيء •• الا أن هذه الدعوة • • كثيرا ما صاحبها شيء من التشاؤم ، وشيء من الشكوى المرة ، التى كان يحس بها الشعب وهو يعيش فى خضم أحداث جسيمة سنعرض لها بعد قليل • وكثيرا ما يبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الظروف • والسأم من الحياة « كالشاعر رمضان حمود » الذى عاف الشباب ، ولم يجد فى العيش مايستحق أى عناء : فالدهر نحسه دائم والسعادة فى هذه الحياة : سراب خادع •

سئمت الحياة وعفت الشباب	ولم أر فى العيش ما يستطاب
هو الدهر لا ينقضى نحسه	وفيه السعادة مثل السراب

ويستمر الشاعر فى مثل هذه الأفكار السود •• يحاورها وتحاوره ثم فجأة يحس بأنه قد سار فى طريق ملتوية منحرفة ، ويشعر بأن الضعف قد استبد به ، وانه أصبح عبدا لهذا الضعف • فيثور على نفسه فينقلب فجاة الى أسد هائج شجاع ، فينشد صارخا :

أقول جهارا ولا أنثنى	ولو كان فى القول مر العتاب
دعونى فما المجد الا العنا	وخوض الجلائل عند الطلاب
فليست تنال العلا صدفة	ولكنها بركوب الصعاب

ثم يأخذ الشاعر فى تأنيب الذين يلومونه على هذا الموقف لأنه يفعل كل هذا لصالح أمة يريد أن يناضل من أجل حقوقها التى ضرب بينها وبين أن تنالها بحجاب صفيق من الدعايات الكاذبة والقوة الظالمة ، وأصبحت تعيش بين ظفر وناب ، وتوالت عليها الذئاب تنهشها ، وتنوشها •• من كل جانب • فمن حق الشاعر أن يقف الى جانب الشعب ويكافح من أجل هذه الأمة :

دعونى أناضل عن أمة	توارت حقوق لها بالحجاب
دعونى أناضل عن أمة	فضائلها بين ظفر وناب
دعونى أناضل عن أمة	عليها توالت شرور الذئاب

وبعد ، فقد رأينا كيف كان الشعر •• يتجاوب مع الشعب ، ويسير معه ، ويعبر عن أحلامه وآماله • ولكى تتم الصورة لابد من أن نتعرض لبعض الأحداث الهامة ، فى هذه الفترة ، بشيء من التفصيل ، حتى نكون قد رسمنا هذه الصورة فى اطارها الصحيح • وبالتالى لتكتمل ملامحها بذهن القارىء الكريم •

(٣) احداث تاريخية كبرى

لعل الفترة مابين سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٤٥ هي الفترة التي بدأ الشعب يتلمس فيها طريقه الصحيح ، ويبحث عن ذاته ، وينشد كيانه وذاتيته التي ضاعت بين ضباب الفرقة والاختلافات الحزبية .

ففي هذا الظرف الذي كثرت فيه « النيابات » ، وتفتحت فيه الأفواه التي تحلب ريقها لامتصاص البقية الباقية من دماء الشعب . ظهرت « زعامات » كثيرة .. كلها .. تزعم أنها تعمل لصالح الجزائر ، فوجد من يلبس مسوح الرهبان ويخفي تحتها ذئابا كاسره ووحوشا متعطشة للسلب والنهب كما وجد من يدعي أنه نائب عن الامة ، ولاسيما وقد فتحت فرنسا باب النيابة ونشرت الكراسي في برلمانها للبعض ممن لايهمهم سوى الكراسي . واحس الشعب بالخطر يهدد كيانه ويوشك أن يقضي على مصيره وذاتيته العربية التي حافظ عليها قرونا من الزمن .

أحس الشعب بذلك فقام يدعو الى مؤتمر عام شامل يضم جميع الاتجاهات والهيئات لتوحد صفوفها ، وتعمل ـ ان كانت جادة مخلصة ـ لفائدة الوطن لا لفائدة الافراد .

وتم اجتماع هذا المؤتمر بالعاصمة سنة ١٩٣٦ ، وضم ـ كما قلنا ـ جميع الاتجاهات والأحزاب ، هذا المؤتمر الذي حمل شعار المؤتمر الاسلامي الأول يعتبر بحق حادثا فريدا في هذه الفترة القلقة المليئة بالاضطراب والاختلاف .

وانبثق عن هذا المؤتمر نواب ذهبوا الى فرنسا ليفاوضوها في بعض المطالب السياسية . وكان يوجد اذ ذاك وال على الجزائر يدعى «المسيو فيووليت » ، وهو معروف بقوميته بعض الشيء ، ووعدت فرنسا بشتى الوعود ، وماطلت كالعادة ، ووجدت من النواب من أثرت عليه .. فجرته الى جانبها ، وأعطته مقعدا وثيرا « كابن جلول » وغيره ممن كانوا مستعدين في أي وقت ليخونوا الشعب من أجل جلسة مريحة في البرلمان الفرنسي .

قلنا : لقد إستبشر الشعب بهذا المؤتمر ، وظنه بداية لحركة شاملة لتوحيد الجهود من اجل العمل الجدي الصحيح فقام الشعر يسجل هذا الحدث التاريخي الضخم . فالشاعر « محمد العيد » القى قصيدة في هذا المؤتمر يحيى فيه هذه الجهود البناءة ، وهو يرى أن هذا المؤتمر ، هو الذي يجب مشاهدته وحضوره . لأنه يعتبر بمثابة اللبنة التي سيقام عليها صرح الجزائر ومجدها . وبه نكون قد أحيينا المآثر والجدود . فمن هذا المؤتمر يرن صدى صوت الامة حرا يدوى مثل الرعد المجلجل . كما أن الشعب سيقتحم السدود التي حالت بينه وبين حقه في الحياة الكريمة .

اقيمى لا تفارقك السعود — سلام الله أيتها الوفود
شهدت اليوم مؤتمرا عظيما — أغر لمثله يجب الشهود
به تبنى الجزائر من جديد — وتستوحى المآثر والجدود
ونبعث صوتنا الشعبى حرا — به يدوى كما تدوى الرعود
ونقتحم السدود الى حقوق — حرمناها وان علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهد — وأدركناه فاشهد يا وجود

ثم يوجه حديثه الى العدو الذى يماطل ويراوغ مرة، ويهدد مرة أخرى ، ويحاول بذلك أن يوقف عجلة الزمن · فيخاطبه الشاعر بهذه النغمة التى تدل على اليأس من هذه الوعود :

وجاءتنا الردود بألف بشرى — فما أغنت بهـا عنا الردود
متى توفى الوعود ؟ فقد مللنا — تساؤلنا متى توفى الوعود ؟

ولكن الشاعر الذى يتكلم باسم الشعب الذى طال انتظاره لهذه الوعود ، وطال ترقبه .. حتى مل الانتظار ، ويئس من أعدائه .

هذا الشاعر يلتفت الى ناحية أخرى غير المطالبة وغير المؤتمرات وغير التوسل .

يلتفت الى ابن الشعب ، الى ابن الجزائر ، أملها ، وذخرها الوحيد فى الدفاع عن حقها بلا مهل . فلماذا الانتظار والقعود ؟ وقد جربنا كل الوسائل فلم تجد مع هذا العدو اللدود . فما على ابن الجزائر الا أن يعمل على طرد هذا اللص الذى نهب خيرات بلاده ، فلا بد من خوض المنايا ، وتقحم الاهوال ، فاما نصر ترفرف بنوده شامخة ، أو موت كريم يجعل حدا لهذا الشقاء الذى لا خلاص منه الا بالاخلاص فى العمل ، والاقدام ، والعلم · فبهذه الثلاثة ·· يسود الانسان فى هذه الحياة . وأما الذى يريد أن يبغى ... فسيمحقه هذا الشعب الخالد :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض — بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لص — تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر فى المنايا — تظللك البنود أو اللحود
باخلاص واقدام وعلم — يسود على البرية من يسود
بغى الباغى رداك فخاب سعيا — وللباغى الردى ولك الخلود

وهذه القصيدة من أروع قصائد الشاعر ، ومن أقواها تعبيرا عن روح الشعب ، وأدقها تصويرا للأحداث فى هذه المرحلة التاريخية الهائلة .

واذا كان «العيد» قد حيا الوفود ورحب بها ، فالشاعر «سحنون» قد رحب بعودتها ، وهنأها بالسلامة فى الرجوع . بقصيدة أقل جودة من قصيدة « العيد » من ناحيتى الصياغة والمضمون .

يقول الشاعر :

مرحبا معشر الحماة الكرام — يا مثال الثبات والاقدام
مرحبا بالمنافحين بحق — عن حمانا وعزنا المستضام

ثم يوجه الخطاب الى الشعب ، يحثه على المضي وراء هـذا الوفد والالتفاف حوله :

انهم جنـدك المدافع حقـا	والمغاوير سـاعة الاحجام
هذه العصـبة العظيمة قـدرا	فامتثل امرها تفز بالمرام

وقد اهتمت فرنسا بهذه الحركة الجديدة التى جدت فى حياة الشعب الجزائرى ، ورأت « كعادتها » أن تبعث بلجنة تبحث الحالة فى الجزائر ، وتتقصى أخبار هذا الشعب ، وتشاهد ... عن كثب ... مجريات الأمور ، وسرت الدعايات والشائعات بأن هناك « فى الحقائب » حقوقا واصلاحات .

وطال الانتظار .. ولم يبد ما يطمئن الشعب على حقوقه ، فضاق الشعر ذرعا بذلك . وقام « الشاعر العيد » كعادته يسأل ويستفسر عن الحقوق التى نادى بها الشعب ، فقال قصيدة ، أعتبرها من أحسن ما قيل فى التهكم والسخرية والاستهزاء بوعود فرنسا الكاذبة . فهذه الحقوق التى قيل انها فى الطريق ... لم تصل بعد ... فهل ضلت الطريق ؟ أم عاقها البحر عن الوصول .. فعجزت عن أن تقطع لججه وشطآنه ؟ . أم راقها البحر ... فأخذت تسبح فيه لاهية بدرره ومرجانه أم انها أخذت بسحر « بنات البحر » فاحتجبت عن أعين الناظرين :

ما للحقوق الينـا غير واصلة	وقد سمعنا بها من منذ ازمان ؟
هل عاقها البحر عنا فهى عاجزة	عن قطع ما فيه من لجج وشطآن؟
ام راقها البحر حسنا فهى سابحة	تلهو بما فيه من در ومرجـان ؟
ام الحقت ببنات البحر فاحتجبت	عن كل قاص من الرائين او دانى؟

وبعد ، فهذه السخرية الطريفة يتوجه بها الشاعر الى هؤلاء الذين يبحثون عن الشعب .. وهو أمامهم ، ويريدون أن يتقصوا أخباره ، وهى ماثلة لعيونهم .. واضحة لا غبار عليها .. وهم فى بحثهم هـذا ... خائفون .. حذرون .. كأن الجزائريين من جنس الفيلان لا من بنى الانسان :

يا باحثا معنا فى كشف حالتنـا	الى متى انت فى بحث وامعـان ؟
الى متى أنت منا خائف حـذر	كاننـا فى البرايا جنس غيـلان ؟

واذا كان الشعر قد اهتم بهذا الحدث التاريخى ، فقد اهتم بالنواب الذين انبثقوا عن هذا المؤتمر ، وتتبع سيرهم ومواقفهم ، فمدح من أخلص للشعب ، وهجا من خانه وتلاعب بمصالحه .

ومن المعروف انه فى هذه الفترة قد كثر النـواب الذين تحدثوا باسم الشعب . وكثرت النيابات .. حتى بات النـواب أكثر من أن يحصى لهم عدد ، لأنهم رأوا « فى النيابة » مغنما لهم ، وتجارة تدر عليهم الربح الوفير ، والجـاه العريض ، دون أن يتجشموا لذلك مشـقة ،

أو يتعرضوا لخطر .·. فيكفى ان تعلن ولاءك لفرنسا ، وتوافق سلفا على ما تريده فرنسا .. وشعارك في ذلك (نعم) ، فتصبح بذلك نائبا مرموقا ، وموظفا كبيرا .

هؤلاء النواب العملاء .. هم الذين أطلق عليهم الشعب عنوان (بنى وى وى) الذين لا يرفعون أيديهم فى وجه فرنسا . وانما يسيرون فى ركابها ، ويأتمرون بأمرها . وليست الجزائر وحدها فى هذا ، وانما الشعب العربى يشاركها فيه . فنحن نعرف أن الشعب العربى قد ابتلى بنواب كانوا نوائب ومصائب عليه وكانوا اخطر عليه من العدو الاجنبى الغاصب . ولسنا فى حاجة الى ضرب الامثلة .. والحاضر يشهد بذلك .

يقول الشاعر محمد العيد في هؤلاء النواب : ــ

افدنى برأى فى النيابات هلحوت	اساود فى قاعاتها أم وسائدا
ومالك ترغى في النيابة موعدا	فان ضاقمنها طأطأ الراس هامدا
الم يأتها أن المعابد حجرت	على الذاكرين العامرين المعابدا
وكم من مآو او مكاتب عطلت	على انها تهدى البنين المراشدا

وبعد هذا التهكم بهؤلاء النواب الذين يشبهون «الوسائد» يرمىبها فى أى مكان دون أن تعارض . وتطاطىء الرءوس .. فى ذل وخنوع .. وكأنهم قد جهلوا ما يجرى فى وطنهم الذى حرمت فيه المساجد وحجرت المعابد ، واغلقت المدارس .. ومآوى أهل العلم ..

بعد هذه السخرية اللاذعة ، يوجه حديثه للنواب الذين كانوا سوطا يلهب ظهر الشعب . وسيفا مصلتا على رقبة الأمة ، ونسوا انهم كانوا قبل « النيابة » يعدون الشعب ، واصبحوا بعدها يتوعدون ويهددون هذا الشعب الذى أعطاهم ثقته :

فيا نائبا ناب البلاد بحادث	وخلف شعبا قائما فيه قاعدا
على اى ظهر كنت سوطك منزلا	وفى أى نحر كنت سيفك غامدا
ومالك ترغى فى النيابة موعدا	الم تك من قبل النيابة واعدا
ويامجلس النواب انك قاطع	يدا كنتمنها «لو تبينت» ساعدا

وهناك طائفة اخرى غير هذه قد مشت فى ركاب الاستعمار ، لم تتخذ النيابة سببا لمآربها ، وانما اتخذت التقرب للعدو بطرق مختلفة ، مثل التجسس ، أو التستر وراء الدين « كممثلين مزيفين للدين الاسلامى » أو موظفين من نوع آخر « كالقياد والآغات والباش آغات » وما الى هذه الالقاب التى هى منمخلفات الاتراك. والتىأطلقتها فرنسا على اذنابها ، السائرين فى فلكها ، مثل « البكوات والباشوات »، فى مصر .

ووقف الشعر لهؤلاء ... كما وقف بالمرصاد لاولئك، يرد عليهم، ويكشف خياناتهم ، ويظهر حقائقهم للشعب الذى كاد يضيع بين هؤلاء.

وأولئك . فهذا الشاعر (فتى الوادى) وهذا هو الاسم الذى وقع به تحت قصيدته التى ندب فيها الفضيلة الجريحة التى أهدر دمها هؤلاء الأدعياء ولعله « مفدى زكريا » أو « رمضان حمودة » والمهم : هو أن الشاعر قد بكى بمرارة ، وتألم ألما فظيعا .. عندما شاهد الفضيلة تهدر كرامتها ، ورأى بعينيه : كيف تداس مقدسات الشعب :

ويلتاه خذى يدى من وهادى ... هذه ادمعى وذاك فؤادى
يا لذكرى سودد قد تنفى ... تحت طيسات كل عصر تلاد
واشهدى مصرع الفضيلة كلمى ... تحت اقدام فارعات العوادى
صبوبوها تفرى التلاوب شظايا ... اسمها فى صميم قلب البلاد

لقد ذبحوا الفضيلة ، وداسوا حرمة الوطن ، وهمهم فى ذلك : أن ينالوا حظوة لدى أسيادهم الذين لم يبخلوا عليهم بالاوسمة والنياشين والالقاب والمراكز .. هؤلاء الذين يستحقون لعنة الشعب وغضب أبناء الشعب الاحرار :

همهم فى الحياة خطة جاسو ... س امين على حمى الأمساد
بهجة العيش أن ترى الشعب منكو ... دا وتحظى بنعمة الأسياد
يتهادون بالوسامة والألقاب ... والكبرياء أى تهاد
يا لحا الله اوجها ، رسم الشر ... على صحنها هنات السواد
وبطونا ملئت سحتا وطانو ... نا وبالذين شبكة الاصطياد

ولم يكتف الاستعمار « بطبخ » هذه العناصر واستغلالها ، واصطناع العناصر الخائنة ليستعين بها على قتل الروح الثورية فى الجزائر واخمادها . بل انه عمد الى وسيلة اخرى ، هى اهم وسائله ، واكثرها قضاء على وحدة الشعب ، عمد الى بث التفرقة ، واثارة الفتن ، وتشتيت اقوى الشعب .. ببعث فكرة العنصرية ... محاولا استغلالها الى أبعد حد . فظهرت فكرة « العربى ، والبربرى ، والمزابى » وما الى هذه الترهات التى لم يؤمن بها الشعب فى أى يوم من الايام ، وانما عششت فى رءوس الفرنسيين الذين ظلوا يحلمون بها .. دون أن تتحقق فى الواقع .

ولم يسكت الشعر فى هذه المرة ايضا ، وانما وقف ليدافع عن وحدة الجزائر ، وينادى بها ... كوطن للجميع ، فلا فرق بين العربى والبربرى ، والمزابى ، كلهم من أصل واحد ، وأرومة واحدة ، تجمعهم أرض واحدة ، وتظللهم سماء واحدة .

فالشاعر « الزاهرى » يوجه خطابه الى المزابى الذى تعرض للخطر مثل كل جزائرى ، ويذكره بأن الجزائر ، موطن الجميع ، ترابنا فيها واحد ، وهى الأم التى واست فى الصبا كل مرضع ، لا فرق بين هذا وذاك ، ويتعهد بأن : سيقضى لها حق الأمومة ، لانها بلاده ، ومحط ركابه وآماله . بل هى الجنة الفيحاء من قبل ان ينشأ ويولد .. ولو انه يحس بالغربة فيها . وهى العروس الجميلة التى تجلى فيها الحسن والجمال ، ومد العز فيها جذوره منذ الازل :

وليس لنــا الا الجـــزائر موطن ترابك فيهــا واحـــد وترابي
هي الام واست في الصبا كل مرضع وفيها اهتدى الساعون سبل صواب
ساقضي لهــا حق الامومة انهــا بلادي التي فيهــا محط ركابي
هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي وان كنت ظلمــا نازلا بيبــاب
عروس تجلت في المحاسن خطبة على جانبيه العــز مد بنــاب

كذلك لم يسكت الشــعر عن بدعة ظهرت في هذه الفترة ، هــذه البدعة ، او هذا الحادث ، هو : (فكرة الاندماج) والدعوة الى الاتحــاد مع فرنسـا ، وقد كان الاستعمار ما يزال يذيع بأن الجزائر فرنسية ، وأنها جزء من فرنسا ، وان الجزائرى مواطن فرنسي ... الى آخر هذه الادعاءات والمغالطات التاريخية السافرة .

وقد وجد الاســتعمار من يؤيده في هــذه الفكرة ، ويساند هــذه الدعوة ، فوقف الشعر « كعادته » يسفه أحــلام العــدو ، ويرد على من يؤيد فكرة الاندماج هذه . فهــذا « الامام باديس » كان صريحا في الرد على هذه الفكرة ، وكان صريحا في موقفه عندما قال : ان الشـــعب الجــزائرى شــعب مسلم ، عربي الجنس واللسان ، يمت الى العــرب بصلة النسب والدم والقــرابة . والذى يدعى غير هــذا ... فقــد كذب ، أو أراد أن يدمجه في فرنسـا .. فهو يطلب المحال والمستحيل :

شــعب الجــزائر مســلم والى العــروبة ينتســب
من قــال : حــاد باصــله او قــال : مات فقــد كذب
او رام ادمــاجــا لـــه رام المحــــال من الطلب

واذا كان الشعر الجزائرى قد اهتم بمجريات الأحداث داخــــل الوطن ، واهتم بالقضايا الوطنية الصميمة . فهو لم ينس القضــــايا القومية الاخرى . فقد تحدث عن مشاكل الشرق العربي ... وخاصة مشكلة فلسطين . وسنشير اشارة موجزة الى هذا ، لاننا سنفرد له حديثا مستقلا شاملا . وانما أردنا أن ننبه الى أن هذه الفترة ، التى غلى فيها مرجل الشعب ، وطغت عليــه الحوادث الجارفة ، لم تنســه القضايا الاخرى القومية ، وحتى الافريقية الاخري .

فالشاعر « محمد العيد » قد حركته أحداث فلسطين ، خاصــة ثورتها سنة ١٩٣٦ ، وأثارت في نفسه شجونا وآلاما ، فراح يصب جام غضــبه على « بنى التــايمز » الذين جاروا على شعب عربي أصيل . ووقفوا ينظرون الى فلسطين كيف تذبح بيد عصابات صهيونية دون أن يحركوا ساكنا . بل كانوا يؤازرون اليهود على عرب فلسطين الاحرار . وماذا بقى للعربي الذى ديست كرامته ونهبت خيرات بلده ... سوى الحرب !؟ والعربي لا يخشى الحرب . فحرب البسوس ، وحرب الفجار ... تشهدان له بالشجاعة والبطولة ، والعربي : لا يركب هذا المركب الا اذا سيم خسفا وهو لا يرضى بالخسف ولا يستنيم الى القهر :

بنى التاميز قد جرتم كثــيرا فهل لكم عن الجور ازدجار ؟
الم يؤلمكم حــرم مبــاح وشـــعب يستجير ولا يجـــار

ونكبة اوجه بالكشف غير ... لشل جمالها صنع المجار
كم احتجت لظلمكم وضجت ... ولكن فى قلوبكم الحجار
اذن فالحرب للعربى داب ... وهل تخفى البسوس او الفجار
شددتم قهرة فغدا انفجارا ... وعقبى شدة القهر انفجار

وكما اسلفنا لم يسكت الشعر حيال القضايا الأخرى غير العربية، فقد شارك الشعر ايضا فى مأساة الحبشة ... عندما هجمت عليها ايطاليا عام ١٩٣٥ فقام الشاعر « محمد العيد » يذرف الدمع الحار ... يواسى به اخوته الافريقيين ، ويؤنب «الفاتيكان» الذى بقى صامتا اخرس حيال هذه القضية التى مست المسيحية التى تدعو الى الحب والسلام ، فاذا بروما المسيحية تعتدى على دولة مسيحية اخرى .. هى الحبشة .

ما بال روما للاذى جردت ... سيفا لها فى دينها يطعن
نيرون روما قام من قبره ... فى ارضها يفتن من يفتن

ثم يوجه الشاعر نقده ولومه للشرق . هذا الشرق الذى وقف هو الآخر ساكتا لا يتحرك مثل الفاتيكان :

والشرق ويح الشرق مستغرق ... فى النوم لم تطرف له اجفن
يا شرق خذ حذرك من جيرة ... هاموا بحب الجور .. مذ هيمنوا

ثم فى نهاية القصيدة يختمها بنداء حار يعزى به الاحباش المظلومين، يريد مواساتهم بالقول ، وتعزيتهم بالكلام ، لان الجزائر تعانى نفس الشىء :

يا معشر الاحباش صبرا لما ... يدمى من الجراح ما يدمن
أنتم لنا . رغم النوى . اخوة ... فما علينا خطبكم هين
ماعندنا حول سوى ما به ... من التعازى تنبس الالسن

ومن هذه الدراسة الموجزة للشعر الجزائرى ، يتبين الى اى حد كان الشعر مرآة للاحداث ، ولسانا صادقا أمينا للتعبير عن احساس الشعب تجاه قضاياه : الخاصة والعامة ، الداخلية والخارجية .

وقد اتضح بما لا يدع مجالا للشك ان الشعب لم يكن غافلا ولا ساهيا عن مجريات الاحداث ، ولا كان منطويا على نفسه كما كان أعداؤه يدعون عنه .

بقيت ملاحظة حول الشعر — لا بد من التعرض لها — وهى : ان الشعر فى هذه المرحلة ، وان كان قد عبر تعبيرا صادقا عن الاحداث، وسجلها بصدق واخلاص، فهو من جهة اخرى : لم يتعرض الى مواضيع اخرى من حياة الشعب ، فيكاد غرضه الاول والاخير .. هو أن يسجل الاحداث السياسية البارزة دون أن يتحدث عن وصف الطبيعة ، او يعالج بعض النواحى الاجتماعية الاخرى .. كالفقر ، والمراة، وما اليهما من المواضيع الحية الاخرى ، ولعل للشعر عذرا فى ذلك : أن هذه المرحلة .. انما هى مرحلة الدفاع عن الذات والكيان وتثبيتهما والدفاع عنهما .

هذا من حيث الموضوع . اما من حيث الصياغة والتعبير، فالشعر في هذه المرحلة قد حاول أن يبتعد ــ ما أمكن ــ عن الابتذال، وأن يعبر بالفاظ لها طابع الايحاء والرشاقة ، وان كان لم يتحرر من التعابير المألوفة .. التي تميل الى الطنطنة والفخامة الفارغة بيد أنه قد تحرر من الفاظ الوعظ والارشاد الى حد ما . مما يجعلنا نقرر : بأن الشعر بدأ يتطور تطورا لا بأس به ، ويحاول الانقلاب من السطحية ، وان بقى غارقا الى أذنيه في بحور الخليل ، وان لم يكن وفيا لها في بعض الاحيان . خصوصا لدى الشاعر « رمضان حموده » . والشاعر في هذه الفترة كان لا يهتم الا بأن يقول كلمته ، وأن يسمع صوته للناس ، ويسجل الوقائع .. دون أن يعتني ــ الاعتناء كله ــ بالناحية الشكلية التعبيرية .

ثم يجب الا ننسى : أن الثقافة العربية في هذه الفترة قد تعرضت لامتحانات قاسية ، وتعرضت لخنق ، بل لقتل كبير ، مما جعل الشعراء لايتصلون بالشرق الذى كان « شوقى » و « حافظ » . وأقرانهما ، قد اتوا بالمعجزات البيانية ، والروائع الشعرية الفذة . فمجال الشعر في الجزائر حينئذ كان ضيقا ، والشعراء معذورون .. الى حد كبير .. ان أردنا انصافهم ، ويكفى انهم كانوا لبنة في بناء صرح الأدب الجزائرى الحديث الذى سنتبين ملامحه في المرحلة الآتية ، والتى تليها بحــول الله ...

الفصل الثالث

شعر اليقظة

١ ــ شعر ماساة ٨ مايو :

تعتبر مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، فاصلا تاريخيا هاما فى حياة الشعب الجزائرى من الناحيتين : السياسية والثقافية .

فقبل هذه المأساة ... كانت السياسة تدور فى حلقة مفرغة ، افكار مهوشة مضطربة ، وأصوات ترتفع ثم تنطفىء ، ودعوات متناقضة ، وقوى موزعة مشتتة .. تبحث عن الطريق .

والشعب يقف وحده فى الجبهة ، يرقب كل هذه القوى المتصارعة المتطاحنة .

وجاءت الحرب الثانية ، فوجد الشعب نفسه يخوضها رغم أنفه ، وانتصر الحلفاء . وقامت مظاهرات فى الجزائر ... رفع فيها العلم الجزائرى « لاول مرة » جهارا ..

مظاهرات سلمية تعبر عن انتصار الحرية فى العالم الحر ، وترجو من وراء انتصار هذه الحرية أن تنال منها نصيبا يساوى التضحيات التى قدمتها الجزائر فى هذه الحرب .

فماذا كان رد العالم الحر على هذه المظاهرات السلمية

كان الرد : هو القتل الجماعى ، ففى خلال ظرف لم يتجاوز ٢٤ ساعة قتل من الجزائريين ما يزيد على ٤٥ الف نسمة ، منهم الشيوخ والاطفال والنساء ، حيث هدمت المساكن ، وأحرقت دواوين باكملها ، وخاصة فى : خراطة ، وقالمة ، وسطف . وامتلأت السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب .

وهنا .. فقط .. أدرك الساسة الجزائريون ــ أو البعض منهم على الأقل ــ أن آمالهم فى فرنسا قد انهارت ، وأن الاساليب التى كانوا يعتمدون عليها فى كفاحهم قد تبخرت ، وأنها اصبحت غير مجدية بالمرة ، وأن الطريق أصبح واضحا ، والوسيلة أوضح . وأن الهدف قد تحددت معالمه الآن .

اذن فقد تبلورت الافكار ، وزالت تلك الغيوم التى كانت تغطى الحقائق ، وبات على الشعب أن يتشوف الى الأفق البعيد المليء طريقه بالعقبات والاشواك والدماء . فليس هناك .. اذن .. سوى الكفاح .

الكفـاح المنظم .. الكفاح الايجابى الفعـال الذى يعتمد على تضحيات الشعب .. لا على العرائض والورق والاحتجاجات .

هذا من الناحية السياسية . أما الناحية الفكرية والثقافية .. فان الشعراء ، والطبقة المتمعة ـ عامة ـ وجدوا انفسهم يعيشون هذا الحدث الضخم ، ورأوا ... بأعينهم ... كيف تهان كرامه شعبهم . وتداس حقوقه ، وهم مسـئولون أمام الله والضمير والوطن . كمـا وجدوا شعبهم يعيش فى جهل فاضح ، وفقر مدقع ، وذل ابدى فأخذوا معاولهم يهدمون هيكل الجهل المتـداعى ، ويبنون صرح الثقافة قويا شامخا . فقاموا ـ فعلا ـ بدور توعية الجماهير ، وتنوير الاذهان ، حيث وجدوا فى مأساة ٨ من مايو ... المعين الذى لاينضب .

ومن هنا اعتبرنا هذا الحدث .. بداية مرحلة جديدة فى حيـاة الشعب ، وفى حياة الشعر والفكر ، وجعلناه بداية يقظة شاملة وعنونا لهذه المرحلة بعنوان « شعر اليقظة » .

ولعل المرحلتين السابقتين قد تداخلت فيهما الاوقات والازمنة ، بحيث لا يمكن تحديدهما تحديدا دقيقا مضبوطا . أما فى هذه المرحلة .. فلا يمكن أن يختلف فيها اثنان .

وبالرغم من أن هذه المأساة قد هزت كيان الشعب الجزائرى ، وايقظته من غفلته ، وهزت العـالم أجمع ، بالرغم من ذلك ، لم نجـد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائرى ، أو حتى : تسجل هذا الحدث البارز ، ولم أدر لماذا ! !

ولعل لبعض الشعراء قصائد فى هذا الموضوع ، ولكنى لم أعثر على شىء فى المراجع التى رجعت اليها ، وهى التى كانت تنشر أغلب الانتاج الجزائرى فى هذه الفترة .

بيد أننى وجدت قصيدة للشاعر « الربيع بوشـامة » وان كانت متأخرة عن الحادث ، اذ أنه نشرها سنة ١٩٤٩ .كماوجدت قصيدة للشاعر « أحمد معاس الباتنى » وهى قبل الثورة بقليل ، كما أنها لم تتحدث باسهاب عن مأساة ٨ مايو . ولم اجد للشعراء أو الشـيوخ سوى قصيدة للشاعر الكبير « محمد العيد » وهى غفل من التاريخ . واللوم لايوجه لشعرائنا الشبان بقدر مايوجه الى شعرائنا الشيوخ .. لانهم هم الذين عاصروا هذا الحدث ، وعاشوا هـذه المأسـاة ، ورأوا « بأعينهم » مقاومة شعبهم ، وظلم عدوهم .. وجبروته . فـكان من حقهم أو من حق وطنهم عليهم .. الا يتجـاهلوا أمرا كهـذا . ثم ان تسجيل الحدث وحده لا يكفى . اننا نريد تصـوير حياة شعب كامل ونضال أمة جمعاء ..

ومن الوفاء للحقيقةوالتاريخ : ان نسجل فى هذه الدراسةللشاعر « الربيع بوشامة » سبقا وامتيازا فى هذا الموضوع . فقـد تحـدث باسهاب عن هذه المأساة ، تحدث عن شهر مايو المشئوم .. وتحـدث عن « خراطة » احدى القرى التى دمرتها قنابل فرنسا . فمـاذا قال « بوشامة » فى شهر الدماء والدموع ؟؟

بدأ الشاعر قصيدته بالدعاء على هذا الشهر ، وبالسخط عليه . فقد فجعت فيه أقوام كثيرة ، وشابت فيه الصبية الصغار من أبناء الجزائر الرضع ، فهو شهر شؤم .. انماعت فيه وميعت ـ الصخور، وتفطرت الاكباد الرحيمة . فتاريخ هذا الشهر .. شؤم وكرب ، سطر من دم الاحرار ، ومدامع الايتام . واذا كانوا قد أعلنوا فيه السلام ، فابن الجزائر لم ير السلام ، وانما رموا به فى حرب وجحيم . ثم أخذوا ينهبون أمواله وحياته ، ويتشربون مهجته ، فى هيام ، ودون ما رحمة أو شفقة .

لقد طلبوه ليخوض معهم الحرب ويشارك فى الدفاع عن الحرية . وعندما حرروا بكفاحه أرضهم واوطانهم جزوه جزاء سنمار :

واليك ماقاله الشاعر « الربيع بوشامة » :

قبحت من شهر مدى الاعوام	**يا (مايو) كم فجعت من اقوام**
شابت لهولك فى الجزائر صبية	**وانماع صخر من إذاك الطامى**
وتفطرت أكباد كل رحيمة	**فى الكون حتى مهجة الايام**
تاريخك المشئوم سطر من دم	**ومدامع فى صفحة الآلام**
ان اعلنوا فيك السلام لقد رموا	**بابن الجزائر فى سوء ضرام**
وتناهبوا امواله وحياته	**وشربوا مهجاته بهيام**
طلبوه للهيجاء حتى حرروا	**بكفاحه .. فجزوه بنت حسام**

ثم يتابع الشاعر وصف هذا اليوم المشئوم حتى يصل الى ان هذا اليوم يجب أن يبقى رمزا خالدا لنضال الشعب يستمد منه الطاقة لمتابعة الكفاح .

لابد أن يبقى كرمز خالد	**يوحى الشجا ويصيح مثل الهام**

وينتقل الشاعر بعد ذلك يحدثنا عن أسرة نكبت فى هذه المأساة ولا يريد الشاعر سوى أن يعطينا صورة لما وقع للشعب الجزائرى المفجوع ، وحديثه عن هذه الاسرة : انما هو كانموذج فقط . ويبدا الشاعر حديثه عن رب الاسرة وكيف قيدوه فى الاغلال عريان صاديا عطشان يسوقه الجند ـ جند فرنسا ـ للاعدام . واعدموا معه أبناءه وكيف كان هذا الاعدام ؟ لقد رموهم جميعا من حالق وتركوهم طعاما للسباع والوحوش . ولم يكفهم ان يرموا بهم من حالق وانما رموهم فى النار الملتهبة ايضا . وذهب الجمع وبقيت دارهم مفجوعة تندب أهاها. وبقيت مع الدار الزوجة الايم والأم الوالهة وولائد رضع .. بقوا جميعا يعيشون فى رعب وحزن وثكل فمن لهؤلاء جميعا بعد هذا الرزء الفظيع ؟ ليس لهم سوى الشقاء والالم :

القوه فى الاغلال نضوا صاديا	**واستيق بين الجند للاعدام**
ورموا به وبولده من حالق	**جزر السباع كجيفة لسوام**
وتتابع الاولاد ثم ابوهم	**يسقون فى النيران كاس حمام**
ذهبوا وامست دارهم مفجوعة	**تبكى رزيتها وذل مقام**
من للحليلة من لام والـه	**وولائد من رضع وفطام ؟**
لاذوا بحزن قاتل ومدامع	**مكبوتة تذكى اشد ضرام**

ولم ينس الشاعر نفسه ، فقد ذكر ما قاساه هو فى هذا الشهر ــ شهر الربيع ــ شهر الحب والجمال ، شهر التفتح والسمر ، ولكنه بالنسبة للجزائر : شهر المصائب والدماء والنحس . ثم يختم قصيدته موجها الخطاب الى هذا الشهر ، يدعوه لينتقم من اعدائه ... وهو يتعجب من صمته . الم يشوه جماله أعداؤه ؟ وهذه الجثث التى امتلأ بها حرمه ، وهذه الآذان المصلومة ، والكبد الرطبة التى شويت .. وكانت من الذ الطعام لهؤلاء الوحوش . فارفع اذن شكوى من ضارع مبتهل قد كفر بالحكم والحكام ، واستعجل العقاب للغرب الذى طغى وتجبر وتضرع الى الله أن ينتقم منه بقواصم تقضى عليه وعلى ظلمه . وكنت اتمنى لو أن الشاعر قد توجه الى الشعب أيضا ليحثه على الانتقام والنضال من أجل سيادته وحرية بلاده . ولكنه « كعادة شعرائنا المتدينين » ينظر الى الاشياء بمنظار الدين .

يقول الشاعر مخاطبا شهر مايو

يا (مايو) مالك واجما لم تنتقم — او ماسقاك الظلم اسوا جام ؟ !
هـــذا حرامك بالدماء مشوه — قد عج بالارواح والاجسام
مهج وآذان وكبـد رطبة — شويت وكانت من الذ طعام
فارفع الى مولاك شكوى ضارع — يبرا من الحكام والاحكام
عجل لهذا (الغرب) من رب السما — بقواصم مجتاحة وضرام

أما الشاعر « محمد العبد » فقد فجر فيه هذا الشهر ينابيع الاحساس المرير ، انه لم يستطع كتم هذا الاحساس .. لان جرح مايو لازال ينزو بالدم ، ولم يجد له آسيا يأسو جرحه . والشاعر يائس من الذين أحدثوا هذا الجرح . بل انهم مازالوا فى غيهم سادرين .

وتمر الليالى على هذا الجرح الدامى ، فلا يجد دواء منهم سوى العنف والبطش . وكلما رام الشعب برأ هذا الجرح .. زادوه جراحا أخرى أعنف وأشد ؛ وقد ضج هذا الشعب الجريح بالشكوى ــ ولكن لمن يشكو ؟ انه يشكو الى عدو لايرحم ولا يعرف الشفقة ولا العطف ولا العدل .. وقد سئم الشعب هذه الشكوى الى العدو ، وهل العدو يرحم او يحس بالجرح الذى كان السبب فيه ؟ .. اذن : فلم يبق على الشعب الا أن يخوضها شعواء بالمرهفات والتروس :

أأكتم وجدى او اهدىء احساسي — وثامن مابى جرحه ماله آسى
وارقب ممن احدثوه ضمادة — وهم فى جماح لم يميلوا لاسلاس
تمر الليالى وهو يدمى فلم نجد — له مرهما منهم سوى العنف والباس
اذا ما رجونا برأه تزد افقا — باحداث سوء وقعها مؤلم قاس
فيالجريح ظل ينكا جرحه — ويؤذى بلا ذنب على اعين الناس
يضج ويستعدى بغير نتيجة — ويشكو بلا جدوى الى غير حساس
سئمنا من الشكوى الى غير راحم — وغير محق لا يدين بقسطاس
ولا خير فى عد المظالم وحدها — اذا لم تبن عن مرهفات واتراس

وقد نجح الشاعر فى تصوير احساسه بمأساة مايو ، كما استطاع أن يعبر عن نفسية الشعب ... عندما بذل كل الجهد ليصل الى نتيجة مع العدو ، وقد سدت فى وجهه جميع السبل .

ولكن الشاعر قد ترك اهم شيء في الموضوع . فقد كان من حقه أن يشيد بصمود الشعب في هذه النكبة ، ويحثه على العمل والنضـال ، ويرسم له الطريق بوضوح أكثر ، لابكلمة أو كلمتين • وهذه حقيقة تكاد لا تخلو من شعر شعرائنا ... خاصة الشيوخ منهم فكثيرا مايعمدون الى التقية ، والى الرمز والتلويح ... بدل المجاهرة والتصريح ، وقد تعذرهم في وقت من الأوقات • أما ، والشعب قد برهن على وعى حقيقى ويقظة شاملة ، فكان من حقهم أن يرشدوه ، ويبصروه ، ويهزوه ... ان دعا الامر الى الهز والدفع . والا فما قيمة الشاعر والشعر اذا لم يكن لسانا صادقا يعبر عن آلام شعبه . ويرشده الى الطـريق الصحيح .. طريق الحرية والتحرر .

بقيت قصيدة الشاعر « احمد معاش البانتي » . وقد قالها وهو يعالج بفرنسا .. قالها في « ذكرى ٨ مايو » وهذا هو عنوانها •

والقصيدة في الواقع موازنة أو مقابلة بين «جبال الالب» و « جبـال الأطلس» وقد تحدث فيها عن سكان كل من الالب والاطلس • فقـد جاء الاولون لاستعمار افريقية ، وكيف وقف ابناء الاطلس الاحرار يدافعون عن كرامتهم وعزتهم ؟ !

يقول في وصف جبال الالب :

متالهات في الجمـال العـاري — يعنو لها متاله الازهـار
شمخت بانف صاعرات خدها — متبرجات بهجة النظـار
شقت على السحب الستائر واعتلت — تزهو بهـام رصعت بنضار

ولكن هـذا الجمال الساحر ، وهـذه المناظر الخلابة ، لم تؤثر في سكان الالب ، ولا رفعت من مشـاعرهم واحاسيسهم ، بل دفعتهم الى افريقيا ينشبون فيها أظافرهم ، فرسوا على شطآنها ورمالها مثل الافاعي في رحاب الدار .

مدت الى افريقيـا اظفـارها — ياويل افريقيـا من الاظفـار
ورمت على شطآنها ورمالهـا — مثل الافـاعي في رحاب الدار

ثم يتحـدث الشـاعر عن ابنـاء الاطلس ، وعن موقفهم من هؤلاء الاغراب ، فالأطلس لم يحن هامته ، وان كان الزمان قد أوهن من عظامه لقد رفع عقيرته يصيح في أبنائه يحذرهم من هذا العدو الغاصب الذي ان تمكن من ارضهم فسيكون الجميع طعمة لهؤلاء الاغيار .

والاطلس لم يتعود ان يخضع فهو رأس افريقية ، وكيف للرءوس ان تنحنى ؟! وللهامات أن تقهر ؟ !

لكن أصلع في الشمال مجنبا — أودى الزمان بريشه العطار
رفع العقيرة وانبرت أصداؤه — ملء الاثير تصيح في (التاتار)
ويلي وويلكم اذا دام الصبا — فانا وانتم طعمة الاغيار
انا راس افريقيا ورمز شمالها — ما للرءوس الشم من قهار

ويستمر الشاعر في وصف الاطلس ، ثم في وصف جحافل العدو ..
الذي غزا الأطلس ، وصب عليه جام غضبه ورماه بكل داهية :

فالنار تهدر والمنايا حولها ... تاتي على الفولاذ والاحجار
والارض ترجف بالجحافل تحتها ... واسناح نعصف بالردى والنار

والواقع : أن هذه القصيدة من روائع الشاعر ، وهي تبلغ حوالي ثمانين بيتا ، ولولا خوف الاطالة لنقلتها كلها .. انها ثورة بركان ، يرمي بالحمم ليوقظ النيام ، ويستفز المتكاسلين ، ويحث المتخلفين عن الركب الصاعد . وهي تنبىء عن طاقة شاعرية هائلة لدى الشاعر ، كما تظهر بجلاء : ان الشاعر قد حاول أن يبتعد عن التعابير الكلاسية التي مجتها الأذان ، وقد أعان على ذلك التعابير الموحيــة .. التي تلمح ولا تشرح ، وترمز ولا تصرح .. وهذه الطاقات التعبيرية الموحيه ، هي التي تجعل لشعر الباتني هذه النكهة ، بل هذه النغمة .. التي تجعلك لاتمل ترديده ابدا . وسنتحدث عن هذا في مكان آخر عندما نتعرض لخصائص شعر هذه المرحلة .

وخلاصة القول : أن مأساة ٨ من مايو أجدر بأن يقال فيها أكثر من قصيدة لشاعر ، وان يكتب عنها الادباء ، ويقول عنها الشعراء ، ولايفيها حقها لانها هي الشرارة الاولى التي نبهت الاذهان الى الحقيقة السافرة التي خفيت عنا زمنا ما . وعسى ان يتحقق هذا الامل ، فنرى قصائد اخرى ، بل روائع اخرى ، تسجل أحداث هذه المأساة التي كان لهـا الفضل في يقظة الشعب وتوجيهه ... الوجهة الحقيقية ... نحو الكفاح ، من اجل حريته ، واسترداد كرامته السليبة .

(٢) مع الشعب

الحقيقة التي لاينبغي أن تغيب عن الاذهان ، والتي يجب أن ننظر على ضوئها للشعر الجزائري ، هي أن الشعر كان دائما وأبدا يقف الى جانب الشعب يواسيه في كل ملمة تلم به ، أو رزء يصاب به ، وما أكثر ما اصـاب الجزائر من ويلات على يد أعـدائه ومستعمريه ، وما أكثر مانكبته ... حتى الطبيعة نفسها ... وما اقسى الطبيعة عندما تثور وتصب غضبها على الناس .. وقد غضبت الطبيعة على مدينة (الاصنام) فدمرتها بزلزالها الرهيب سنة ١٩٥٤ ، كما غضبت قبلها على (خراطة) فكادت تبيد ساكنيها عن آخرهم . ووقف الشعر ليسجل هذين الحدثين الرهيبين .. وقف مع الشعب يواسيه ويشد من أزره .

فهذا هو الشاعر «محمد العيد» في قصيدته الرائعة «زلزال الأصنام» يصرخ من أعمق أعماقه ، متألما ، ملتاعا .. من هذه النكبة التي دمرت مدينة بأجمعها . بل امست الجزائر من أقصاها الى أقصاها . وأصبحت تعيش في حداد ورهبة . مثل أم فجعت في احدى بناتها العزيزات .. وهو يتأسف ويتوجع على الاصنام التي رجت دورها .. وتهدمت ، وداهمها الزلزال ليلا وهي « تحلم » في نومها الهادىء المطمئن :

ويح الجـزائر ما دهاها مالهـا ‏ تدعو دراكا .. تستغيث رجالها
ويح الجزائر اصبحت مكروبة ‏ ولهى تئن فمن يكون ثمالها
مفجوعة ثكلت فتاة برة ‏ حسناء شوهت المنون جمالها
أسفي على الاصنام رجت دورها ‏ تحت الظلام وزلزلت زلزالها

وبعد : هذه الصرخة المتألمة من الشاعر تأخذ في وصف هذا الزلزال فيتعجب من هذه الرجة الغريبة التي لم يشاهد الجيل مثيلا لها •

كيف ؟ لقد دوت كالرعد القاصف ، وهوت على السكان فأخرجتهم ، بل طحنتهم وأودت بهم ، فأزهقت الارواح ، ومزقت الاوصال ، ولم تقتصر في تدميرها على العباد ، بل انهـا قد عصت حتى على كل من وما اعترض طريقها . فلم تسلم لا الكرمة ولا الحديقة ، ولا من استغل غلالها ، وقد قوضت المقاصر التي زينت بالأسرة التي طالما آوت عرائس خودا لا تحد دلالها • فمضت على آمالهن .. وأحلامهن، وأصبحن تائهات .. مشردات، وكم من أم عطوف صاد الحمام وتخطف وحيدها .. كالنسر الذي هوى على حمامة فاغتالها :

عجبا لهـا من رجة أرضية ‏ ما شاهد الجيل الحديث مثالها
دوت دوى الرعـد ثم تدكدكت ‏ بالآهلين وأخـرجت اثقالهـا
اودت بأعلاق التلال وازهقت ‏ مهج العباد ومزقت اوصالها
كم كرمة آوت بهـا وحديقة ‏ عصفت بها ومن استغل غلالها
وسراية قد زينت بأسرة ‏ تؤوى عرائس لا تحد دلالها
فسقت بها فتقوضت وتعوضت ‏ من بينها شؤما يقبح فالها
امست مشردة تهيم .. فقيرة ‏ تبكي سعادتها وتندب مالها
كم مرضع صاد الحمام وحيدها ‏ كالنسر صاد حمامة فاغتالها

والشاعر قد حاز في سبب هذا الزلزال .. كما حار غيره ، فهل السبب هو تأثير التجارب الذرية ؟؟ أم صواعق جوية ؟؟ أم هزة تربة نارية ؟؟

لم نكتشف سببا له متيقنا ‏ الا افتراضات تحوك خيالها

وانما الشيء المتحقق ان هذه البلدة قد بقيت حطاما فوق حطام ، وركاما على ركام ، فلا ترى .. الا الديار وقد تكدس بعضها فوق بعض والجبال قد هوت مطأطئة الرءوس فحطمت صخورها ورمالها . وكأنها سفن في بحر هائج مضطربة تميل يمينا وشمالا . ولربما ترى دارا قد هزتها هذه الرجة من أساسها فأدارتها مثل الرحى تماما . وانك لتشاهد أعاصير الرياح .. وقد شنت حربها على الاكباد .. فسددت اليها نبالها . وأكثر من هذا : تشاهد الكواكب يلفها السواد القاتم مثل هؤلاء الثكالى .. وقد استشعرت اسمالها • وترى أيضا الأخاديد .. وقد انفتحت شقوقها ؟ رهيبة ، عميقة ، موغلة في الثرى ايغالا :

فترى الديار على الديار اكبها ‏ وترى الجبال على الجبال امالها
خرت مطأطئة الرءوس فتبددت ‏ حول السفوح صخورها ورمالها
فكأنها سفن ببحر هائج ‏ صخب تميل يمينها وشمالها
ولرب دار هزها من اسها ‏ وادارها مثل الرحى واجالها

وترى اعاصير الرياح اثارها حربا « تسدد » للكبود نبالها
وترى الكواكب فى سواد قاتم مثل الثكالى استشعرت اسمالها
وترى أخاديد الشقوق رهيبة فى العمق توغل فى الثرى ايغالها

ويستمر الشاعر فى وصف هذا الزلزال العنيف .. وصفا لم نقرأ مثله لشاعر عربى فى مثل هذا الموضوع ، حتى الذين تحدثوا عن « هيروشيما » . ولقد حشد لها من الصور البيانية ، والاخيلة ، والتعابير الموحية ... التى تجعلك تحس احساسا قويا برهبة هذا الزلزال وبعنفه. وانظر الى وصف الكواكب التى لفها السواد مثل هؤلاء الثكالى اللائى استشعرت أسمالها ، ان هذا التعبير « استشعرت » يوحى بالحساسية المفرطة ، والشعور العميق بالكارثة . ويختم الشاعر قصيدته بلوم مواطنيه .. الذين يلهون ، ويمرحون ، ويجرون خلف اللذائذ ، ساهين عن واجبهم تجاه وطنهم الذى يرجو أن يقاتل فى سبيل حقه. وهم يعرقلون نضاله ، وكفاحه . فكان جزاؤهم هذا الزلزال :

وبنو الجزائر فى سفاسف عيشهم خلف اللذائذ ينشدون وصالها
ترجو الجزائر أن تناضل حرة عن حقها ، فيعرقلون نضالها

فهذه القصيدة تعتبر من غرر الشعر العربى فى وصف الكوارث والمحن ، وهى دليل على أن الشاعر الجزائرى لم يكن بعيدا عن شعبه ، بل كان معه .. والى جانبه فى كل الاحوال :

وقد هزت الشاعر « مفدى زكريا » هذه الرجة ، وحرك نفسه هذا الزلزال ، فقال قصيدة على غرار قصيدة « محمد العيد » بعنوان « الآن ربك اوحى لها » ويبدؤها بسبب هذا الزلزال .. فيعزوه الى الاثم والفسق الذى عم هذه الناحية ، هذا الاثم الذى لم تتحمله الارض ، فأخرجت ما عندها من أثقال ، لترمى به الآثمين . وقد سخر البعض من هذا ، فذهب يسال الارض عن هذه الغضبة ، ولكن كان الاجدر ... ألا تسأل الارض عن هذه الرجة التى رمت الناس فى جحيم مهول .. بل كان الاجدر أن يسألوا « ابليس » الذى أوحى لهم بالشر والاثم . فردت الارض ترمى باللهيب المحرق ، والعذاب الماحق ، بوحى من الله تعالى :

هو الاثم زلزل زلزالها فزلزلت الارض زلزالها
وحملها الناس أثقالها فاخرجت الارض أثقالها
وقال ابن آدم فى حمقه يسالها ساخرا : مالها ؟
فلا تسألوا الارض عن رجة تنادى الجحيم وأهوالها
الا أن ابليس أوحى لكم الا أن ربك أوحى لها

هذا هو مطلع القصيدة ، وهو ... فى الواقع .... مطلع ليس فيه ما يلفت النظر مثل ما رأينا فى قصيدة « محمد العيد » التى كانت بدايته التياعا وأنينا ، وحرقة وألما وكان تعبيرا صادقا عن الفاجعة .. بأتم معنى للكلمة ، أما مطلع « مفدى زكريا » فقد استوحاه من آيات قرآنية من سورة « الزلزال » . فليس فيه جديد فى الوصف ولا فى الاستعارات والأخيلة والمعانى التى يوجبها السياق فى مثل هذا الموقف . كما بدا سبب الكارثة

الذى عزاه الى الاثم والفجور • وهذه الفكرة ـ فى الحق ـ بسيطة ، اذ هى من التعليلات الساذجة البسيطة ، وكان من حقه أن يتعمق أكثر ، فيبحث عن السبب الحقيقى ـ عن قوى الطبيعة وظواهرها • ثم يوجه عناية شعبه الى استكشاف غوامض الطبيعة ، ومن ثمة يدعو الى الاخذ بأسباب العلم الصحيح ، والرقى الفكرى الحقيقى • ولا ضير بعد ذلك فى أن يضيف سببا آخر : كالاثم «مثلا» ••• الى تعليلاته ، حتى يجمع بين العقل والقلب ، وبين الواقع والخيال •

وقد أعجبنى منه تلك الاستعطافات للطبيعة ، وذلك النداء الحار المخلص : بطلب الرفق ، والعطف على هؤلاء المنكوبين ، هؤلاء الذين جردتهم الطبيعة من كل شىء • فهم : حفاة عراة ، جياع ، يصارعون الموت • فقد فقدوا كل شىء ••• سوى محاجر العيون التى تندب وتبكى اطلال منازلهم التى شردوا منها ، فهم أشبه بالهياكل الهزيلة ، وحتى السماء لم ترحمهم•• فأخذت تهطل اليوم عليهم مدرارا :

ففى الحى قوم عراة حفاة — جياع •• تصارع آجالهـا
هم فقدوا كل شىء سوى — محاجر تندب اطلالهـا
هياكل حتى السماء أرسلت — تطاردها اليوم هطالهـا

فهذا المنظر الذى يعرك الصخر ، لم يحرك بعض النفوس للبذل والعطاء ولمواساة المكروبين ، فحز فى نفس الشاعر أن يشاهد أناسا •• لم يحركوا ساكنا ، ولا بادروا باعانة مواطنيهم ، فصب عليهم سوط غضبه ، وجحيم ثورته العارمة ، واستنزل عليهم لعنات الرب القوى •

أما أولئك الذين شاركوا شعبهم ••• آلامه ، ووقفوا يواسون الجراح ، ويبذلون ما عندهم ••• فهم : أمل الجزائر ، ان هؤلاء ••• قد استحقوا ثناءه • كما تضرع الى الله أن يعضد جهودهم ويباركها ، لانهم عاهدوا الجزائر على الموت من أجلها ، والدفاع عنها ••• الى آخر رمق :

وقوم اذا جئتهم امسكوا — وشدوا على الدار أقفالهـا
كرام مساريع فى موبقات — جبين المروءة يندى لهـا
فيالمنات احصدى انفسا — عن الشعب تمسك أموالهـا

أما الذين ضمدوا الجراح ، وأعانوا على النائبات ، فلهم الصلوات الطيبات :

وياصلوات اعضدى معشرا — غدوا للجزائر آمالهـا
وقالوا : سنبقى على عهدها — وقالوا : نموت ونحيا لهـا

واذا كان « مفدى زكريا » قاسيا ثائرا ساخطا على الذين لم يقفوا مع الشعب . . فالشاعر « العيد » كان هادئا عطوفا . دعا لهم بالهداية والرفق بهؤلاء الضالين الهالكين • ولعل هذا الاختلاف يرجع الى طبيعة كل من الشاعرين والى فارق السن ،فالشاعر « العيد » شاعر شيخ ، ينظر نظرة الحكماء ، ومفدى زكريا ، شاب ثائر ، ينظر بعقلية الثوار الشبان • وان كنت أفضل قصيدة « العيد » على قصيدة « زكريا » • للاسباب المتقدمة ، جملة •• لا تفصيلا •

ويأتى الشاعر « الربيع بوشامة » ليسجل زلزالا آخر قبل الاصنام، زلزال وقع ببلدة « خراطه » هذه البلدة التى كانت من جملة البلدان التى دمرت فى مأساة ثامن مايو ١٩٤٥ . ومطلع هذه القصيدة :

قف بالحمى .. وانظر مدى الزلزال ... وتحسس البركان فى اقبال
والحظ « هوادى » فيحه وحمية ... ودوية المتزايد الصوال
قد شق فوهة بعيدا غورها ... يرمى بادخنة ... نذير خبال

وهذا المطلع قوى ، يجعلنا نحس .. حقا .. بفداحة الامر ، وعنف الزلزال ، بما حشد له من صور وتعابير مدوية فخمة تهيء القارىء لان ينظر ... فى شوق ... الى باقى القصيدة، فالتعبيرات :« قف ــ تحسس ــ والحظ ، فيحة ــ حمية ــ دوية ــ الصوال » . . . الى آخر هذه الحشود والصور التى تهز النفس هزا . والتى تجعلنا نترقب باقى القصة فى لهفة وتطلع ، ولعل مطلع الشاعر هنا أقوى من مطلعى الشاعرين العيد وزكريا . وقد يتساوى مع « العيد » فى المطلع .

ثم يأخذ الشاعر فى وصف ما جر الزلزال على ... خراطة ... وسكانها ، الذين استبدلوا سكنى الخيام وحياة الترحال ، بعد الديار والاستقرار . وابعض يبكى هؤلاء النازحين وهو يترقب فى خوف .. وفى كل حين ــ بطشة الزلزال . والبعض الآخر قد خربت ديارهم .. ولم يبق منها سوى أطلال، بل أنها قد تهدمت على ساكنيها الذين تكدسوا فى كتل متراصة تحت الثرى المنهال :

« خراطة » باتت مسارح رجة ... كبرى توقع أروع الأهوال
وتحس فى أطوائها وسهولها ... بمهزة وتمايد فعال
قد خرج منها أهلها واستبدلوا ... سكنى الخيام وعيشة الترحال
فالبعض يبكى النازحين ويرتجى ... فى كل حين بطشة الزلزال
والبعض منها قوضت أركانها ... وتخربت لم يبق من أطلال
وهوت على سكانها فى وهدة ... وتعانقوا تحت الثرى المنهال

ثم يأخذ الشاعر يتألم ويتأسف لما ألم بهذه البلدة المسكينة ، التى هجمت عليها الاحداث من كل جانب ، وتوالت عليها المصائب داركا. فهى بالامس : شهيدة الحرية ، وطريدة الظلم والاستعمار . وهى اليوم فريسة البركان والزلزال . لقد جفاها الكل فسقيت الوانا وأنواعا من الشقاء والاذلال :

أسفا عليك ــ بليدة ــ مسكينة ... وصدتك احداث بكل مجال
بالامس أنت طريدة معروضة ... للظلم .. أفناك ، بسيف نكال
واليوم أنت فريسة مقهورة ... فى مخلب البركان والزلزال
كل جفاك وما دريت بعلة ... وسقاك الوانا من الاذلال

كذلك : الطبيعة نفسها ... لم ترحمها ، ولم تشفق عليها . فقد طعنتها .. فنكأت جرحها الذى لم يندمل بعد . طعنتها بوحشية تريد القضاء عليها ، على مابقى من ضربة الثامن من مايو ، لم يؤثر على هذهالطبيعة

شيء لا الدموع ولا الدماء ، ولا حتى عطفت على الاطفال الصغار الذين لا ذنب لهم :

حتى الطبيعة سددت طعناتها — لجراحك المشبوبة السيال
وتهجمت بقساوة تبغي القضا — ء على بقايا النفس والأموال
لم يثنها عنك الدموع ولا الدما — كلا .. ولا عطف على الاطفال

ويختم القصيدة « فى النهاية » يستعطف المحسنين ... ليواسوا اهل هذه البلدة المنكوبة . والقصيدة فى مجموعها : جيدة ، فهى تصوير رائع للمأساة ، تجعلك تشعر بعطف على « خراطة » ولو لم تعرفها . وهذا يرجع الى أن الشاعر صاغها : فى قالب جميل ، وعبر عنها : بتعابير موحية مؤثرة ، بيد أن هناك تعابير مضطربة ، قلقة ، تفسد من جمالها ، وتقلل من وقعها .. وتأثيرها . ولكنها هنات قليلة .. بالقياس الى ما فيها من روعة السبك ، وعاطفة انسانية جياشة .

هذه بعض النماذج من الشعر الجزائرى الذى عبر فيه عن شعوره تجاه شعبه ، فشارك : آلامه ، وأحزانه ، وأفراحه ، وأتراحه . ولا أقول جديدا اذا ما أعلنت بأن الشعر فى الجزائر .. كان للشعب ، يتتبع خطواته ، ويسجل أحداثه ، فيحزن لحزنه ، ويفرح لفرحه ..

وسيتضح هذا أكثر فى دراستنا المقبلة لهذا الشعر .

فى موكب العروبة

من الخطأ الفاضح : الاعتقاد بأن الشعب الجزائرى كان بعيدا عن ركب العروبة ... حتى قامت الثورة المباركة ، التى أرجعته الى حظيرتها ، بعد أن كاد يغرق ... الى أذقانه ... فى بحر الاندماج والذوبان فى كيان فرنسا . وأكثر من هذا خطأ الظن : بأن الشعر كان بعيدا عن موكب العروبة أيضا .

والحقيقة التى لا يشك فيها أحد ، أن الشعب الجزائرى يحس ... احساسا عميقا ... بعروبته وبقوميته . والدليل على هذا : كفاحه الطويل من أجل هذه القومية ، ومن أجل لغتها ، وتاريخها ، وآدابها . ولكن كفاحه كان صامتا ... لم يسمع به أحد . لان الشعب كان معزولا عن العالم فى معظم الاحيان .

ومن هنا كان احساس البعض بأن الجزائر كانت بعيدة عن العروبة وعن ركبها الصاعد . ولم تبرز كشعب عربى الا فى السنوات الاخيرة ، خاصة : بعد الثورة . وهذا ان دل على شيء ... فانما يدل على جهل البعض بالقومية نفسها وبطبيعتها . فانت تستطيع أن تجرد الانسان من أى شيء الا من قوميته وجنسيته وذاته وهذا ما جعل فرنسا تخفق ... الاخفاق الذريع ... فى محاولاتها المستمرة ، التى رمت بها ... الى تجريد الشعب الجزائرى من عروبته ، فحرمت اللغة العربية ، وهى اللحمة التى تربط الشعب بعروبته وتاريخه . وحاولت مسخ هذا التاريخ ... حتى

ينسى الشعب ماضيه ، وماضى آبائه ٠٠٠ وأجداده العرب ، ولكنها لم تصل الى نتيجة ، سوى أنها جعلت الشعب يؤمن « أكثر من ذى قبل » بعروبته وقوميته ٠

وقد رأينا ـ فيما مضى من هذه الدراسة ـ كيف أن الشعب وقف فى عناد وقوة يدافع عن عروبته ، ويحارب كل الافكار الهدامة التى أرادت أن تدمجه فى قومية أخرى ، وفى جنسية أخرى . وماهذه الثورات الدائمة والانتفاضات المتكررة الا علامة من علامات ايمان الشعب بعروبته وقوميته ٠ فلم يفهم الشعب الجزائرى القومية على أنها فلسفة لها أصولها ودعائمها ، انما أحس بها فى كيانه ٠٠ فى دمائه ٠٠ أحس بها فى تاريخه الذى ارتبط بتاريخ العرب منذ الفتح الاول ، أحس بها من نبرات هذه اللغة العزيزة التى يعبر بها عن انفعالاته وعواطفه ومشاعره كانسان ٠ أحس بالعروبة لانه عربى وكفى ٠

لم يحاول أن يفلسف القومية ، أو يتعمقها ، أو يبحثها ، أو يكتب البحوث عنها ، لانه يعتبرها شيئا مفروغا منه ٠٠٠ لا يختلف فيه اثنان ٠ ففهمه للقومية العربية : فهم ساذج بسيط ، ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ فهم سليم صادق خالص ، لا يعتريه شك أو ذبذبة ٠

عبر الشعب الجزائرى عن احساسه بقوميته فى شتى المناسبات ، عبر على لسان شعرائه ٠٠ يشارك العروبة فى أفراحها وأتراحها ، يحزن لحزنها ، ويسر لسرورها ... دون أن يرقب جزاء أو شكورا على ذلك . وهذا هو الفهم الصحيح للقومية العربية الصحيحة ٠

وقد أخطأ البعض ـ مثل الأديب سعد الله ـ فى ظنه بأن الشعر فى الجزائر لم يتعرض للقضايا العامة الا تحت ظروف ووحى من الداخل ، وقد نشر بحث له بمجلة الآداب لشهر ديسمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « تصميم للشعر الجزائرى الحديث » جاء فيه ما نصه :

ومن ذلك أنه شعر جزائرى ، قليل التعرض للقضايا العامة ٠ ولذلك قلنا : انه قد صور حياة الجزائر ٠ ٠ ٠ تصويرا واقعيا صادقا ٠ بحيث تحدث عن جهلها وبؤسها ، وتأخرها ٠ وتحدث عن جمالها ، ومنزلتها ، وامتيازها ٠ وتحدث عن نهضتها ، وحركاتها ، ورجالها ٠

فاذا ما تناول قضية عامة ، فان ذلك بوحى من داخل الجزائر ، مثل : استقلال الشعوب ، والحرب ، والنفس ، والموت ، وعلاقة الانسان بالله ٠

والأديب سعد الله فى هذا الرأى ـ ومثله من يؤيده ـ مخطىء الخطأ كله ٠ فالشعر فى الجزائر ٠٠٠ كما اعتنى بالقضايا الداخلية ، اعتنى أيضا بالقضايا الخارجية ٠٠٠ وخاصة القومية منها ، لانه يعتبرها قضية واحدة ٠ وسنرى فى بعض القصائد أن هناك تداخلا كبيرا بين الجزائر والعروبة ٠ أى أن الشاعر لا يفصل بين هذه وتلك ٠ ولا يفرق بين الجزائر والعروبة ٠ ثم ما هو مدى هذا الوحى الذى كان يدفع الشعر ليتناول القضايا العامة ؟ فهل هو التحدث عن استقلال الشعوب العربية ـ مثلا ـ

أو عن آلامها وأحزانها وكفاحها ؟ هـل هذا يعد حديثـا عابرا لا صلة له باحساس الشعب العربى فى الجزائر ؟ وما الشـعر الا تعبير عن خلجات الشعب ، وأحاسيسه ٠٠ تجاه نفسه ، وتجاه الانسـان الذى تربطه به رابطة الدم ، أو رابطة الانسانية ٠

وقد تحدث الشعر فى الجزائر ، عن « هيروشيما » وعن شـعوب افريقية وآسيوية ، ولولا خوف الاطالة : لنملت نماذج لذلك ٠

وهذه قضايا العروبة تشهد بما قدمنا ٠ ونبـدأ بقضية « فلسطين » أم القضـايا ، والمشكلة الاولى بالنسبة للشعب العربى ٠٠٠ منذ الاعتداء الصهيونى الاسـتعمارى على ارضهـا الطاهرة ٠ ولن أتحدث عن موقف الشعب نحو هـذه القضـية ، فذلك ممـا لا يجهله أحد ٠ وانمـا أنقل احساس هذا الشعب وعواطفه تجـاه اخوانه عرب فلسـطين على لسان شعرائه ٠

فالشاعر « محمد العيد » أحس بالظلم والجرم الفادح ، عنـدما وقف الاستعمار يؤيد الصهيونية فى عام ١٩٤٨ ليقتطع لهـا جزءا من جسم الامة العربية ، ويغرسـها « كشوكة » فى حلق الشعب العربى فأحل بالقانون جرما فادحا ، وأذل دين الله للدينار : ـ

ان الـذى زعم العـدالة شرعة … اذى الأئمة فى رضى الاحبـار
ولا هى العمومة فى وشائج نسلها … وسـطا على الاجوار بالأجـوار
واحل بالقـانون جرما فادحا … وأذل دين الله للدينـار

ولـكن هذا الغاصب المعتدى ، الذى جار على حقوق العرب ، سيأتيه يوم ٠ يوم يثور فيه العربى لكرامته ٠٠٠ فينتقم لها أشد انتقام ٠ لان عدوه الغاصب أعرض عن السلام . فلا بد له من حرب تقضى عليه وعلى عدوانه . ولا يظن أن صبحه طالع ، فالبدر قد يخدع السارى وسيرى : ان أمانيه كاذبة منهارة ، لانها بنيت على أساس منهار ... لانهـا بنيت على الظلم ، وما بنى على الظلم ... لا يدوم ولا يبقى ، فالقدس « يادعى » لابن القدس ، لا لمتشرد « مثلك » صهيونى مهاجر أفاق غادر :

قل لابن صهيون اغتررت فلاتجر … ان ابن يعـرب ناهض للثـار
اعرضت عن خطط السـلام موليا … فوقعت منها فى خطوط النـار
لا تحسـبن بأن صبحك طـالع … فالبدر ويحك خادع للسـارى
سـترى أمانيك التى شيدتها … منهـارة مع ركنك المنهـار
القدس لابن القـدس لا لمشرد … متصهين ومهـاجر غدار

وهذه صرخات أخرى لشعراء شـبان ، كان احساسهم بمأساة فلسطين ... مثل احساسهم بذل شعبهم ووطنهم . يقول الشـاعر « بوشامة » فى قصيدة بعنوان « صوت الجهاد » يدعو فيها العرب الى الجهاد والنضـال من أجل استرداد فلسطين . أرض الهدى ، هذه الارض الطاهرة التى نهبها العدو ، فهى تنادى الشـباب العربى الى الجهاد والكفاح :

تقدم بحـزم قوى الفـؤاد ... لصـون الدماء وفك البـلاد
فلسطين ارض [illegible] ... تنـادى الجهاد الجهاد الجهاد
فتى العرب هيا قلب النداء ... ولاق المنـايا بسـاح الفداء
فلسطين فى النـار نهب العدا ... تنـادى الجهـاد الجهـاد الجهـاد

وله قصـيدة اخرى يحث فيها العرب على الوقوف الى جانب فلسطين والموت من اجلهـا والا فليترقبوا الشـقاء والعار الابدى تحت حـكم اليهود ، الذين لا يعرفون سوى اقتراف الجرائم . ويستنفر الجزائرى الى الكفاح من اجل فلسطين ، ويختمها بالترحم على أرواح الشـهداء ، وهى قصيدة طويلة ، انقل منها بعض الابيات ، يقول الشاعر : ـ

ايها العرب أمة المجد والبـأ ... ساء ماذا ترجون غـير التفانى
انه الموت فى الكرامة والعـ ... ـز أو العيش فى الشقا والهوان
تحت حـكم اليهود اخبث من عا ... ث فسـادا فى عالم الانسـان
والد الخصـوم ابلوا بـلاء ... منـكرا فى التخريب للعمران
اين ذاك الجـزائرى المجـلى ... فى ميادين كل حرب عـوان
كيف ترضـون عيش أمن وخير ... وفلسطين فى الجحيم تعـانى
هل نسيتم عهد الاخوة والنـ ... ـبى وفضل التحرير والاحسـان
رحم الله كل حر شـهيد ... فى سبيل الاسـلام والاوطان

وكما اسلفت في هذا الحديث : ان هناك قصـائد تتداخل فيها قضايا العروبة . ليتحدث الشاعر فيها عن الجزائر وعن فلسطين وعن العروبة لا يفرق بينها أبدا .

فالشاعر « عبد الكريم العقون » فى قصيدته (بنى العرب هـذا يومكم) يبدأ بالحديث عن الجزائر التى تتجمع فوقها السحب . ولكنها سحب عابرة ، وسـيأتى يوم تضحك فيه ، وتحظى بأملها العـذب ، فتخلع عنهـا اغلال الذل والمهانة ، وتحيـا عزيزة مكرمة ، وتجـاهد اعداءها جهادا مريرا أليس الشـعب الجزائرى من نسـل يعرب ، لقد تحركت نفوس العرب فثارت دماء العروبة فيها . وسـتشعلها ثورة عربية ترمى بأعدائها فى الجحيم . وسيصلى شياطين الطغاة شـواظا من نيران . هـذه الثورة العربية التى ستسـتمر حتى تطهر أرضـهم من الدخلاء :

سينقشع الغيم المخيم عن شعبى ... فيغدو صحوكالمشرق الافق كالغرب
ويحظى بآمال عـذاب جميلـة ... وكم من جنى عذب لدى الامل العذب
ويخلع اغلالا ثقـالا يجـرها ... ويجلو ظـلام الظلم بالزار والوثب
يؤمل ان يحيـا عزيزا مظفرا ... سريع الخطى للمـكرمات وللذب
يجـاهد أعـداء الحقيقة جهده ... ويرميهم مثل الشياطين بالشهب
دماء بنى العرب استفاقت فايقظت ... نفوسـا فثارت تطير مع السرب
لقد اوقدوها ثورة عـربية ... بجيش همام كالصواعق منصـب
شـديد المراس فى النوازل مدرب ... جرىء الى واسع الطعن والضرب
سيصلى شياطين الطغاة بجمعهم ... شواظا من النيران كالوابل السكب

ثم يوجه حديثه الى دولة اسرائيل المزعومة : —

لقد جهلت(صهيون) واشتط حلمها بدولة (اسرائيل) فى موطن العرب

ثم يتجه الى العرب الذين فرضت عليهم اسرائيل فرضا فيدعوهم الى ازالتها من الوجود :

الا فاجعلوها طعمة لأجيجها فليسوا باهل للثبات لدى الخطب

ويوصي فى النهاية الشعب الجزائرى بان يتجه الى الشرق العربى، ويلتفت مع اشقائه حول جامعة الدول العربية ، يحثه على الاعتصام بمبادئها ، ويوصيه بأن يكون جنديا من جنودها . فهى رمز الوحدة ، وحدة العروبة .. التي ترجع الى سلالة واحدة ، هى سلالة يعرب ، وعبد مناف ، وكعب : —

ويشعب ول الشرق وجهك واعتبر بجامعة العرب الموحدة الركب
فثق بمبادئها وكن من جنودها وخض معها الاحداث جنبا الى جنب
وما نحن الا من سلالة يعرب وعبد مناف جدنا وبنو كعب

ولكن الشاعر « أبو شامة » يوجه حديثه الى العرب جميعا ، يذكرهم بماضيهم ، ماضى أمية وتغلب ، ويدعوهم الى أن يثوروا على الظلم،مثل الجدود الذين رضخ لهم الغرب فى فترة من الفترات ، واعترف بزعامتهم وصوتهم . هؤلاء الجدود الذين شادوا وبنوا صروحا شامخات ،وأتوا بالعجب العجاب ، وكانوا هداة ومرشدين للضالين الحيارى :

أراكم نسيتم عهودا مضت عهود (امية) أو (تغلب)
فثوروا على الظلم مثل جدود عنا لهم الغرب فى الاحقب
فكم حطموا معقلا شامخا وشادوا من السؤدد الأعجب
وكم ارشدوا حائرا تائها يتقز من الشك أو سبسب

ألم يكف الغرب مايشاهدونه من تجمع الغرب واتحاده ضدهم • ألم تكن فلسطين درسا بليغا •• يذكرنا ويعظنا • ولكن : اذا كان الغرب قد اغتر بقوته .. فستشرق شمس المشرق . وسيرجع عهد الاخاء ، ويجتمع شمل العروبة فى وحدة قوية شاملة . فحسب الذى يتجاهل هذا ... حسبه هذه اللغة التى هى اسرة قوية ، ولحمة متينة . وكذلك الدين القويم .. دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ارى الغرب قد جمعوا شملهم على الشرق والشرق مثل الصبى
فدرس فلسطين درس بليغ يذكرنا الحلف فى موكب
رويدك يا غرب لا تغتر فشمس بنى الشرق لم تغرب
وانا سنرجع عهد الاخاء ويجمع شمل بنى يعرب
فحسبك بالضاد من نسبة اذا ما انتسبنا ودين النبى

أليس هذا شعور العربى المخلص نحو القومية العربية الحقة ؟ أليست هذه صرخات من عربى يتألم لما لحق العروبة من اضطهاد على ايدى الغرب ، يستفزها للعمل من أجل الوحدة والاتحاد ، ومن أجل الكرامة والعزة ؟ الم يعبر الشعر فى الجزائر عن شعور الشعب الجزائرى تجاه القومية أصدق تعبير ؟؟

وأختم هذه الكلمة عن فلسطين بمقطوعة من قصيدة الشاعر « احمد سحنون » يحث فيها هو الآخر زعماء الشرق على ضم الصفوف ، ويدعو الشعراء الى أن يكونوا لسان شعوبهم .. فيوقظوها ، ويشجعوها . فالشعر ثورة ، ولكنها تحمل القلم .. لا السيف ، ويحث الجيش العربى المظفر على خوض المعركة حتى النصر ، وحتى يطرد أعداء فلسطين ، أعداء العروبة :

موطىء اقدام النبيين والرسـل — وارض نبى الوحى بوركت من نسل
فداك الفدا لا تقبلى قسمة العدى — وللموت سيرى لا تبيتى على الذل

الى ان يقول موجها خطابه للعرب جميعا : —

ويا زعماء الشرق ضموا صفوفكم — ليصبح هذا الشرق مجتمع الشمل
لقد جد جد العرب فاقتحموا الوغى — ولا تدفعوا جد الحوادث بالهزل
ويا شعراء الضاد حثو شعوبكم — بشعر يداويها من الجبن والبخل
فما الشعر الا ثورة غير انهـا — (توصل بلا كف وتسعى بلا رجل)
ويا أيها الجيش الذى رجع ذكره — قلوب العدى باكر فلسطين كالوبل
سترجع منشـوراللواء مظفرا — ويرجع اعـداء (النبيين) بالتكل

أما أرض الكنانة فلها فى قلوب الجزائريين مكانة خاصـة ، لقد كانوا — وما زالوا — يعقدون عليهـا الأمل فى الدفاع عن العروبة ، والحفاظ على كرامتها . وكان الشعب الجزائرى يرقب الاحداث التى تجرى فى هذه الأرض ... العزيزة على نفسـه ، كان يرقبها بيقظة وانتباه شديدين فكان يتألم عندما تتعرض لاى خطر . ويفرح عندما تحقق انتصاراً ، وقد عبر عن هذا شعراؤها . ويطول الحديث ، لو اردنا أو نورد ما قيل فى هذا الموضوع ، ولكننى سأكتفى ببعض النماذج كمثال ليس غير .

عندما وقع الاعتداء على القنال ، اى عنـدما قامت مصر بشـن هجومها على أعداء البلاد فى القنال عام ١٩٥٢ وأخذ الاسـتعمار الانجليزى يقتل ويدمر ويعتـدى دون وازع من ضـمير ، عندما وقع هذا أحس الشعب الجزائرى بأنه قد مس هو الآخر . وشعر بأن جزءاً من العـروبة ، بل قلبها النابض .. قد أهين فتألم ، ونقـل ألمه شـعراؤه . فهذا محمد العيد عبر عن الم الشعب الجزائرى عندما اعتدى الانجليز على ارض العروبة . وأخذ يحث الشعب العربى فى مصر للزحف على الاعداء ، وأن يشنها حربا يثأر بها لكرامته ، ويحث مصر ان تجعل كتائبها وجيوشها من الجند لا من الورق ، وأن تسفح الدم لا المداد ، ولن تقف وحـدها ، فالجزائر والمغرب العربى يهتف معها ويؤازرها ، وانه باق على عهد العروبة .. ولن يتحول عنها ابدا :

أغار على الـكنانة شـد عاد — فقل يا مصر حى على الجهـاد
اعدى كل باسـك واسـتعدى — لرد الزاحفين بلا اتئـاد
امن شـكر الصنيعة ان يجازوا — ببيض صـفاحهم بيض الايادى
فشنيها عليهم حـرب ثـار — وشبيها لظى ذات اتقـاد
وخطيهـا كتائب غـير كتب — وصـحفا من دم لا من مداد
هتافات (الشـمال) اليك تعلو — صدى وعهوده لك كالعهـاد

كما شارك الشعب والشعر فى فرحة الوادى بيوم الجلاء ، يوم ان عقدت معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ فقد فرح الشـعب الجزائرى بجلاء الجيـوش الاجنبية عن أرض الكنانة ، وانجلى الظلم عن الوادى الخصيب .. مثلما ينجلى الليل البهيم يعقبه فجر مشرق حبيب .. بعد أن قضى سبعين سنة جاثما فى هذه الارض يمتص وينهب خيراتها . ولكن بعد أن عانى من اهلها الابطال زمانا . ارغموه فى النهاية على أن يخرج منها ذليلا حقيرا : ـ

انجلى الظلم عن (الوادى)الخصيب	**كانجلاء الليل عن فجـر حبيب**
فوق سبعين قضاها جاثمـا	**فى ربوع مسـها منـه اللهيب**
فعنا فيهـا زمانا خـائرا	**ثم ولى جانحـا للغـروب**

ويستمر الشـاعر « عبد الكريم العقون » فى فرحته التى هى فرحة الشعب الجزائرى ، ويخاطب العرب فى مصر الذين تحرروا من القيد ، يستنجد بهم لوطنه « الجزائر المعذبة » التى لا يسعها الا ان تفرح مع مصر :

كاى من فؤاد هنـا فى طـرب	**راقص للنبـا العـذوب**
(فاذكرونا مثل ذكرانا لـكم)	**ايهـا الابطـال انا فى كروب**
من دخيـل لج فى طغيـانه	**سـد فى أوجهنـا كل الدروب**
نحن فى الخطب سواء هل لنـا	**منكم عـون على دفع الخطوب ؟**

وقد عبر الشعب عن فرحة الشعب باستقلال السودان وتحررها من حكم الانجليز ، وقد نقل هذه الفرحة الشـاعر الكبير « محمد العيد » فى قصيدة طويلة ، أنقل منها بعض الابيات ، يقول « العيد » :

فوز سرت بحـديثه الركبان	**فالشرق مغتبـط به جـذلان**
والسـمحة البيضاء يعلى بشرها	**ولو ازدرت بحقوقهـا الأديان**
والنيل يجرى صـاخبا ومصفقا	**طربا فنرقص حوله الشـطآن**
وبنـو العروبة يهتفون لمركب	**فى النيل ابحـر ركبه العربان**
ما اسعد السـودان باستقلاله	**فاليوم يرفع رأسـه السودان**

ويستمر الشاعر فى وصفه المبدع لفرحة الجـزائر باستقـلال السودان ، ويربط بين الحاضر والماضى مذكرا بعهد الآباء والجـدود وامجاد العروبة الخالدة . فى أسلوب يتدفق قوة وسلاسة وحـلاوة . ولكن بالرغم من شعوره بهذه الفرحة الغامرة ، لم ينس آلام شـعبه وأحزانه وما يعانى من الاجنبى واستعماره الظالم ، ويتساءل عن اليـوم الذى تتحرر فيه الجزائر وترى الحرية هى الأخرى .. وتعم الفرحة الشعب العربى جميعا : ـ

من مبلغ السـودان عنـا اننا	**شـبع له بشـعورنا خـلان**
نتبادل القبـلات باستقـلاله	**فرحا وان طافت بنا الاحـزان**
متسـائلين عن الجزائر هل دنا	**تحريرها أم حظهـا الحرمان ؟**
ومتى تقرر كالشـعوب مصيرها	**فقـد انتهى تقريره الايان ؟**
ومتى يكف عن الخضوع خصومها	**او يرعوى محتلهـا الغضبـان ؟**
ومتى تفوز بنعـمة استقـلالها	**لقد اسـتقلت دونها الأوطان ؟**

وكما تحدث الشعر عن الشرق العربي ، فقد تحدث كثيرا عن المغرب العربي .. تحدث عن أفراحه وأتراحه .. تحدث عن كفاحه وعن أحداثه ، من أبطاله وزعمائه .. تحدث عن « الزعيم عمر المختار » الشهير بليبيا ، وعن « محمد الخامس » وعن « المنصف باى » ، وعن غيرهم ممن قدموا خدمات جليلة للمغرب العربي .. هذا المغرب .. الذى هو دار الجميع ، هذه الدار التى يباركها « محمد العيد » والتى كانت ـ وما تزال ـ ملاذ الجميع ، بالرغم من الفرقة التى زرعها أعداء المغرب العربي ، هذه الفرقة التى ستزول حتما بالعلاج الحاسم .. بالوحدة والاتحاد : ـ

بورك المغرب من دار لنا	**بوأتنا من مغانيها كنانا**
نحن فيها أسرة واحدة	**فتنت الفرقة فى أعضادنا**
اخوة دينا وجنسا ولسانا	**ان منها أبدا كل ضنانا**
عالجوها باتحاد جامع	**ناجع المفعول يبغى الشنآنا**
ضمن الله به العز لنا	**ونفى الذلة عنا والهوانا**

وبعد فهذه بعض النماذج التى نقلتها للمثال .. لا على سبيل الحصر .. على أن الشعر فى الجزائر كان لايفتأ يعبر عن احساسه نحو قوميته وعروبته ، ونحو اخوانه واشقائه العرب . ويكاد الشعر فى الجزائر لم يترك قطرا من الأقطار العربية الا ويشاركه فى آلامه ، وفى أحلامه وأفراحه . ولا يسمح المقام بضرب الامثلة على ذلك . فمن شاء الاطلاع فليرجع الى المصادر التى ذكرناها سابقا ، فسيجد فيها أكثر مما ذكرنا . سيجد أن احساس العربى فى الجزائر بقوميته .. صادق مخلص ، وانه لم يتأخر ـ لحظة واحدة ـ عن موكب العروبة .. بل انه يسير معها .. أن لم يكن فى المقدمة ، وسيبقى على العهد .. ما دامت دماء العروبة الحرة تجرى فى دمه ، وحتى يرث الله الارض ومن عليها .

بين احضان الطبيعة

الذى يلفت النظر حقا فى الشعر الجزائرى ، هو أنه قليل الحديث عن الطبيعة ، بالرغم من أن الجزائر .. تزخر بشتى المناظر الطبيعية الخلابة .. تزخر بشلالاتها الرائعة ، وبغاباتها التى تتناثر فيها المروج الخضراء الجميلة . وتتفجر فيها العيون المتدفقة الثرارة ، وترتفع فى سمائها الاشجار المختلفة من بلوط ، وسنديان ، وسرو ، الى الزيتون ، والنخيل ، وعرائس الكروم . أما الجبال الشاهقة : فحدث عنها ولا حرج ، ولا أبالغ اذا قلت أن هناك مناظر طبيعية لا توجد .. حتى .. فى أوربا التى اشتهرت بمناظرها البديعة . ويعرف هذا كل من زار الجزائر وتجول فى ربوعها شرقا وغربا . ولست أدرى : ما السبب الذى جعل شعراءنا لا يتغنون بهذه المناظر ولا يصفونها ؟

ولعل اهتمامهم بمشكلات الشعب .. هو الذى جلب انتباههم ، وجعلهم لا يلتفتون الى النواحى الاخرى .. وان كنت لا أرى هذا مبررا لعدم اكتراثهم بهذه الناحية .. اذ من الواضح جدا : انه فى امكان

الشاعر الحق ، ان يثير اهتمام المواطن .. بقصيدة يتحدث فيها عن منظر طبيعى فى وطنه ، فيحبب اليه هذا الوطن . ويجعله يحس بالفخر والاعتزاز ، ويشعر بأهمية بلاده .. وما تحوى من خيرات ، ومناظر جميلة .

ومع هذا النقص الخطير ، فهناك البعض من الشعراء الذين حاولوا .. فى قصائد قليلة .. أن يتداركوا هذا النقص الكبير الذى لا أجد له مبررا أصلا .

هناك من تحدث عن الصحراء ، وعن رمالها ، ونخيلها ، وحياتها الساذجة البريئة .. مثل الشاعرين « أحمد الباتنى » و « أحمد سحنون » . وهناك من تحدث عن الربيع وازهاره ، وعن البحر وزرقة مائة ، وعن النهر وخرير مائة .. فالباتنى فى قصيدته « لحن من الصحراء » قد وفق الى أبعد حد . فقد فتنته الصحراء برمالها الذهبية الفاتنة ، ونخيلها ذى الجنى الطيب .. الذى يتناثر فى هذه الصحراء المترامية الاطراف ، وكأنها بحر يموج بعضه فى بعض .. هذا النخيل الذى يرتفع كثيرا فى كبرياء وشموخ ، وكأن رءوسه صقور تجوب آفاقا عالية ، حاملة فى مخالبها السمحة جنى صيد يباهى به الثريا :

بسط الرمل راحتيه وحيا	وحيا النخل طيبه القدسيا
واستوى فى الفضاء يرفع جيدا	مستطيلا يضوع مسكا زكيا
فكأن النخيل فى البيد بحر	ذو سوار يخوض بحرا حبيا
حالقات ، كأن فى كل رأس	جنح صقر يجوب أفقا عليا
هز فى المخلب الكريم جنى با	ت يباهى بها جناه الثريا
حالمات أسرابه فوق ساج	لا شراع به لغوص تهيا

ولكن هذه الصحراء التى سحرته .. وخلبت لبه ، قد أثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، ذكريات .. لا يمكن أن ينساها العربى أينما كان ، وحيثما حل . فالصحراء ذكرت الشاعر بمجد آبائه الاولين ، الذين انطلقوا منها ليرفعوا علم النضال ، وينيروا الطريق للانسانية التى سعدت فترة بهذا القبس المنير المضىء ، وهى من ثم : موطن الوحى ، ومهبط الالهام ، ومواطن الجدود الاباة العظام :

موطن الوحى لا اخالك الا	منبع السحر سرمدا ابديا
من لآلى ثراك ينبثق النو	ر فيكسو الحياة معنى ثريا
كنت يا موطن الجدود رحيما	ببنيك الاباة .. كنت سخيا

ثم يسترسل الشاعر يصف حياة سكان الصحراء البدو الرحل .. يصف رحيلهم ، وسمرهم بالليل ، وغناء الرعاة .. وقد سحرته هذه النغمة التى تنبعث من الناى فى رقة وعذوبة ، ثم هذا النداء فى البكور ، هذا الاذان الذى يوقظ النائمين يدعوهم الى الصلاة .. ولا يسمح المقام بنقل القصيدة كلها ، فهى طويلة مثل قصائد الشاعر الاخرى .. والحقيقة أن الباتنى يملك قدرة عجيبة ، وطاقة كبيرة ، عندما يصف .. أو يناجى الكون ، ويتأمل الحياة والاحياء . وله قصائد رائعة ، مثل :

« سرابيل الحياة » و «عبادة الحب» وهو طويل النفس ، سلس التعبير ، وان كان مقلا في انتاجه .

وهناك شاعر آخر تحدث عن الصحراء ، شاعر من الشيوخ ، هو : « احمد سحنون » فقد تحدث عن الصحراء في قصيدة بعنوان « الصحراء » وحديث سحنون عن الصحراء .. حديث عادي يصف الصحراء وصفا ماديا ويوازن بينها وبين المدينة ، ويفضلها على المدينة . ومطلع القصيدة :

اصحراء انت الكون بل انت اكبر　　　وشخصك في عيني أبهى وابهر

وبالرغم من ان الشاعر حاول ان يصف الصحراء ، ومناظرها ، وحياة سكانها ، الا انه لم يستطع أن ينقل لنا احساسه وحبه للصحراء ، ويجعلنا نتاثر بل نشاركه احساسه وحبه لها . وقد افلح « الباتني » في هذا بما حشد في قصيدته من صور تعبيرية جميلة ، وبما أضفاه على الصحراء من خيال شفاف ، وبما اشاع في قصيدته من حنان وعطف يبدو في هذه الالفاظ الموسيقية الجميلة ، التي تجعلك تحب الصحراء دون ان يدعوك الشاعر الى حبها جهرة ، مثلما فعل « سحنون » الذي يقول :

انا ابنك قد لقنت حبك ناشئا　　　واني على ذا الحب لا اتغير
وشاعرك الباني علاك ومن غدا　　　بمجدك في الدنيا يتيه ويفخر

وهناك شاعر آخر قد فتنته الصحراء ، وتغنى بجمالها ، حتى دفعه حبه للصحراء أن جعل عنوان ديوانه « الصحراء » وهو ديوان لم ير النور بعد .. فما زال تحت الطبع .. على ما اعتقد . وهذا الشاعر هو الاخضر السائحي الكبير . وهو الآن بالجزائر العاصمة ، ومن سوء الحظ انني لم أتمكن من أن أصحب معي بعض قصائده ، ولعله الشاعر الوحيد الذي تغنى في شعره بمناظر الجزائر الخلابة .

والجدير بالملاحظة : ان الشاعر الكبير « مفدي زكريا » هو الآخر له قصيدة في الصحراء .. ولكنها قيلت بعد الثورة ، وسنعرض لها في الوقت المناسب ، لانها من الشعر الثوري الذي أفردنا له فصلا آخر .. وهذه في الواقع ظاهرة تسترعي النظر في الشعر الجزائري ... ظاهرة الاعتناء بالصحراء والحديث عنها . ولعل السبب يرجع الى الحنين للماضي ... الى الصحراء التي أنجبت محمدا الرسول الأعظم .. وانجبت خلفاءه ، وابطال العروبة .. والاسلام . أو ربما يرجع الى الصحراء نفسها التي تغري بالحديث عنها ، لما فيها من حياة ساذجة سلسة حلوة .. تدعوك الى حبها ، والتغني بمناظرها الجميلة الساحرة .

واذا كان هؤلاء الشعراء قد فتنوا بالصحراء .. فالشاعر «العقون» قد فتن بالبحر والنهر والربيع .. فالشاعر « العقون » ضاق ذات يوم بالحياة والاحياء ، فلاذ بالبحر يبثه همومه وأحزانه :

هانا اليوم قد وقفت اناجيـ　　　ـك يا بحر فاستمع لنشيدي

ويستمر الشاعر يشكو من الحياة والاحياء ، ويبث البحر احزانه وآلامه ، ثم يصف البحر وصفا رائعا جميلا .. هذا البحر الذى هو مرعى الخيال ، والمورد الخصب لهذا الخيال . بل انه فوق كل وصف وكل حد .. لانه مفتون بالغيد اذا ما جئنه يوما .. عاريات باديات النهود ، يعبثن بمائه الازرق الذى يغريهن بالعبث وهن فى نشوة من حسنه الساحر .. انه يسحرهن بصفائه وفتنته :

انت مرعى الخيال مورده الخصـ	ـب وان كنت فوق كل الحدود
انت مغرى بالغيد ان جئن يوما	عاريات وباديات النهـــــود
عابثات بمـــائك الازرق المغـ	ـرى نشاوى بحسنك المعبـــود
يجتلين فيـــك مرآة ســـحر	شع فى عمقها حلى كالعقـــود

والقصيدة كلها تسير على هذا النسق الذى يخلو من حـــرارة العاطفة . ومطلعها ضعيف جدا . فقد كان الاجدر بالشاعر . أن يتجنب هذه الهاء التى لا يصح مطلقا ان يبدأ بها شاعر قصيدة فى وصف منظر طبيعى مهما كان . انما تصلح للمنبر وايقاظ الرقود . ولكن الشاعر فى قصيدته « فى مولد الربيع » قد تدارك هذا التقصير ، وسجل احساسه بمولد الربيع وقدومه .. فى نفس هادىء محبب ، وفى هدوء جميل .

ومن ذا الذى لا يطرب لقدوم الربيع ، ولا تستخفه النشوة الحالمة عندما يشاهد الطبيعة .. وقد اكتست ثوبا قشيبا ، ودبت الحياة .. فى الحياة والاحياء ، على السواء . انه شهر الجمال والشباب :

قد بدا البشر من محيا الربـيـع	فازدهى الكون بالجـمال البديع
مذ تراءى للناظرين ســـــناه	خف كل فى نشـــــوة ونزوع
يا له منــــظرا يحـــرك أوتا	ر فؤاد يهتز للتوقيــــــع

واذا كان الناس يبتهجون بقدوم الربيع ، ويسرون لقـــدومه . فكذلك الطبيعة .. نفسها .. تحس بجماله . فالروابى قد رفلت فى حلل الجمال الوديع ، ولبست برودا قشيبة .. جعلتها تخطر فى دلال محبب للجميع .. لبســـت كل هذا الجمــــال بعد عرى أصابها ، ورياح هوج قد أزالت عنها حللها القشيبة . ولكنها قد استردتها فى الربيع .. وهى مزهوة ، وعليها بسمة ساحرة .. فباتت تسحر النفوس التى تعشق الجمال :

والروابى قد أسفرت عن وجـوه	زانها منظـــر الجمال الوديـــع
اكتست بردها القشـــيب وتاهت	فى دلال محبب للجمــــــيع
بعـــد عرى اصـــابها ورياح	لفحتها وذلة وخشـــــــوع
فـــــدت مزهـــوة وعليـــها	بســـمة من دموع غيث مريع
وغدت تســـحر النفوس بوشى	ناطق .. بجـــلال سر منيـع

واحس الاحياء أيضا بجمال الربيع ، ودبت الحركة فى هـــذه الفراشات الهائمة على الزهور ، تداعب ثغرها فى بهجة وولوع ، طائرات سابحات مع النسيم ، تهمس للنـدى وللزروع ، غارقات فى حلمهـا اللذيذ ، تنشر العفة والصفاء والطهر والأمـــانى فهى كالربيع تمامـا .. وليست الفراشات وحدها التى استخفها الفرح فانتشت بالربيع . انه

يشـاركها أيضا .. هذا القطيع من الغنم الذى انتشى .. هو الاخر بهذا اللحن الشجى ، الذى ينطلق من أرغن رعـاة القطيع .. يردد أحلام الشباب ، وأمانى الرعاة . انه نغم حلو يفعم النفوس سرورا ، وهـو اشهى الى النفس ، واوقع فى الأذن .. من أى صوت آخر . كل القلوب تهفو اليه ، وتحن شوقا الى الاصغاء اليه .. فالربيع .. بعـد كل هذا .. يلهم النفوس ، ويبعث فيها الاحسـاس بالحياة . فياليته لم يمل الى التوديع :

والفراشات حائمات على الزهـــ	**ر يداعبـــن ثغـره فى ولـوع**
سابحات مع النسـيم المنـدى	**هامسات الى النـدى والزروع**
غارقات فى حلمها تنشر العـفة	**والطهر والمنى .. كالربيـع ..**
والقطـيع انتشى بلحن شـجى	**قـد تغنى به رعاة القطـيع**
نغـما يفعم النفـوس سرورا	**هو اشهى من صوت كل سجوع**
كل قلب اليـه ينبض شـوقا	**وهيـاما كومض برق لمـوع**
لاعدمت ((الربيـع)) ماهم قلبى	**ليته لم يمـل الى التـوديع**

ولعل قصيدة « الشاعر » فى النهر بمسقط رأسه « برج الغدين » خير ما يفصح عن شاعريته وقدرته على الوصف .. فقد تمنى فيها ، بل استرجع فيها ذكريات طفولته ، وكيف قضاها على هذا النهر الذى عاد اليه بعد غيبة ، وهو اشد ظمأ الى أن يمتع نفسه بمنظره الجميل :

قد عدت للنهر الحبيب ظامئا أطفى الزفير
متسليا بجماله الاخاذ انصت للخرير

هذا النهر الذى يذكره بايام صباه ، وعهد الطفولة المرحة . فقد قضى فيه يوما يسترجع ماضيه القصير .. قضاه فوق المروج الخضر ، ما بين الحشائش والزهور .. ليحيى به عهدا مضى ، وليجـدد أيام طفولته العزيزة .

وقضيته يوما جميلا من مدى العمر القصير
فوق المروج الخضر ما بين الحشائش والزهور
أحيى عهودا عذبة قضيتها الطفل الغرير

لقد كان فى طفولته يشدو كالطيور ، ويغرد منتشيا بجمال هـذا النهر .. ويروح يعبث بمياهه الجاريات ، وبزهوره المخضلة الجميلة ، وتسحره الغابات التى تمتد على جـانبى النهر .. هادئة ساكنة ، ومن حولها : هذه الجبال الشاهقات التى تغمر النفس بهجة وغبطة ، وهو فى كل ذلك : يصغى الى هذه الطيور التى ترتل آيات الجمال .. ويشـم معها نوار الخمائل حين تعبق بعبيرها الفواح . ثم يتابع هذه الافراخ فى اشجارها ، وفى أعشاشها ، يبحث عن بيضها فى كل مكان .. وكثيرا ما قلد الشاه فى ثغائها ، أو النسور فى صفيرها .. وهو يستمع الى رجع صدى صوته كيف تردده الكهوف ، ويمضى : بعـد كل هذا .. لينطلق آهة يتحسر فيها على ماضيه مع هذا النهر الجميل :

اشدو كاطيار نشاوى بالاصائل والبكور
واروح اعبث بالمياه الجاريات وبالزهور

واظل فى الغابات بين هدوئها الساجي المثير
بين الجبال الشاهقات اعيش مغتبطا قرير
أصغى الى ترتيل آيات الجمال مع الطيور
واشم نوار الخمائل حين تعبق بالعبير
واتابع الافراخ فى أشجارها أو فى الوكور
وابحث عن بيض الطيور لدى المغاور والوعور
احكى ثغاء الشاة او احكى الصفير مع النسور
وصدى الكهوف مع الجداول والغراب اذا يطير
امضى لتحقيق الامانى لا أبالى بالفتور
آه على تلك الليالى قد مضت ليست تحور

هذه بعض النماذج لشعرائنا فى وصف الطبيعة التى لم يناموا بين احضانها ، وانما حيوها من بعيد ، تحية رقيقة ، محتشمة . وكان من حقهم أن يمتزجوا بها ويكشفوا جمالها الساحر ، ويبرهنوا على احساسهم بجمال الطبيعة فى أرض الجزائر الساحرة .. ولكن : لسبب او لآخر .. لم يفوا هذه الناحية حقها ، ولعلهم فى المستقبل .. يتداركون هذا الجانب الهام الذى يستحق منهم كل العناية ، وكل الاهتمام ، فيفتحون بذلك آفاقا جديدة فى الشعر الجزائرى ، الذى مازال يدور حول نفسه ، دون أن ينطلق الى الآفاق الرحبة الواسعة .

الارهاص الثورى

ربما لا يعرف الكثير من الناس ، أن الشعر الجزائرى .. قد ارهص بالثورة ، وتكهن بها ، بل : ودعا اليها .. بصراحة .. فى اغلب الاحيان ، ورمز اليها فى بعض الاحيان الاخرى .

وانه لمن اغرب وثبات الخيال فى هذا الشعر : أن يتكهن حتى بمكان الثورة ، وبانطلاقها من الجبال .

ان المرء ليقف حائرا أمام هذه الومضة الخاطفة فى الشعر الجزائرى .. ان الشعر يتكهن بالثورة ، ويعين لها الجبال .. كمنطلق ومركز للانفجار ..

ربما يكون الشعر قد رأى فى الجبال رمزا للقوة والمنعة . ورأى فيها الحصن المتين الذى يمكن أن يلوذ به الثوار فى يوم ما . وقد يكون وثبة خيال جرىء . ولكنها .. على اية حال .. كانت صادقة لقد ايدها الواقع .. فانطلقت الثورة من الجبال ، وحققت احلام الشعراء .. بعد تكهناتهم وارهاصاتهم .. بزمن طويل .

ولعل اول قصيدة ، او اول نشيد ، قد تكهن بذلك ، هو نشيد « من جبالنا » . ويبدو انه ظهر أعقاب مأساة الثامن من مايو سنة ١٩٤٥ ، بعد تلك المجزرة الكبرى التى ذهب ضحيتها اكثر من ٤٥ الف نسمة فى ظرف ٢٤ ساعة .. ظهر هذا النشيد فجأة ، وردده القلوب المتعطشة الى الحرية والاستقلال ، ولم يظهر قائله . ولا شك انه معروف للبعض . فقد حفظ هذا النشيد .. الكبير والصغير ، واتخذوه رمزا

للنضال ، ينشدونه فى كل مناسبة وطنية ، وفى كل اجتماع .. وفيه دعوة صريحة الى الثورة ، والى التحرر ، ومطلعه هو :ـ

من جبالنا طلع صـوت الاحرار ينـادينا للاستقـلال
ينـادينا للاستقـلال لاستقـلال وطنـنا

وفيه دعوة جهيرة الى التضـحية من اجل الوطن وحريته .. التضحية بكل غال ونفيس من اجل شرف الوطن :

تضـحيتنا للـوطن خـير من الحـياة
اضـحى بحيـاتى وبمـالى علـيه

هذا الوطن الذى يستحق كل شيء .. يستحق الحب العميق ، الحب الذى يفنى فيه الفرد . ويسـلو كل ما فى الحياة .. لان حب الوطن أغلى مما فى الحياة من لذائذ وشهوات :

يا بـلادى يا بـلادى انا لا أهـوى سـواك
قد سـلا الدنيـا فـؤادى وتفـانى فى هـواك

هذه البلاد التى لها تاريخ مجيد ، ولها صـولات وجولات .. وفوق ذلك : فيها من الحسـن والبهاء ، ما يجعلك تحبها .. وتدافع عنها :ـ

لك فى التـاريخ ركـن مشرق فـوق السـماك
لك فى المنـظر حسـن ظل يغـرى ببهـاك

فما على ابناء هذا الوطن الا ان يكونوا بمثـابة السـور الذى يحميه ، ويرد كيد الاعادى عنه ، وهم جديرون بذلك .. فهم اهـل عزم وثبات :

نحن سـور بك دائـر وجبـال راسـيات
نحن ابنـاء الجـزائر آل عـزم وثبـات

هذه مقطوعة من النشيد الذى تنبأ بالثورة ، وكان ارهاصا لها .. قبل قيامها بأكثر من ثماني سنوات ، وهو : ان دل على شيء ، فانما يدل على أن الايمـان بالثورة ، كان هو السبيل الوحيد للتحرر من الاستعمار الفرنسى البغيض . وأن هذه الثورة .. ستنبعث من الجبال ، سيثيرها الفلاحون الذين ذاقوا مرارة الاضطهاد ، وعرفوا الاستعمار فى أبشع صوره .

هذه الجبال التى لم تطاطيء من راسها فى يوم ما .. للدخيل ، ولا خضعت للاجنبى المحتل . والذى يعتدى على أبنائها .. فقـد اعتدى عليها ، واستهان بها ، والويل .. ثم الويل .. للذى لايحترم الجبال الثائرة . كما رمز بذلك الشاعر « محمد العيد » فى احدى قصائده :

نحن الجبال بنـو الجبا ل صـدى الجبـال بنـا حدا
من سـامنـا ايـذاءه فعلى الجبـال قد اعتـدى
ومن اسـتهان بنـا استهان بها فحل به الردى

والشاعر « العيد » يعبر عن تعطش الشعب الجزائرى للحــــرية ، وتلهفه الى الانعتاق من ربقة الاستعمار الاجنبى ، ويسبــترشد الحرية الحمراء ، هذه الحرية التي لا تأتي بغير الدم ، والتى ركب لهـا الشعب .. المركب الخشن . هــذه الحرية ، التي طالت غيبتهـا على الشعب الجزائرى الذى يرنو اليها ... فى شــوق لاهف ، ويتطلع الى شمسها المشرقة الوضاءة :

نبتغى العيش فى الجــزائر حرا ... مطلقـا لا يخفـــه ارهـاب
ارشدينا السبيل أيتها الحمــ ... ــراء انا قوم اليــك ركاب

هذه أبيات من قصيدة للشاعر « العيد » بعنوان : (نبتغى العيش فى الجزائر حرا) وهى قصــيدة طويلة ، يحث فيها الشباب الجزائرى على العمل الجدى ، وعلى الاتجاه الى الشرق العربى ، الذى هو موئل العروبة ، وهو الذى حافظ على العروبة ... فهو المورد البارد السائغ الشراب :

ياشباب اتجه الى الشرق واحفظ ... كل كنــز له اليه انتســاب
انما الشرق نسبة العرب الاحـ ... ـرار لم تنقطع لهـا اسـباب
انما الشرق للعــروبة كهف ... آمن الظـل بالأذى لا يصـاب
انما الشـــرق للعـروبة ورد ... بارد المـاء سائغ مســتطاب

وللشاعر أرهاصات تبدو فى قصيدته (فى يوم باتنة العظيم) هذه القصيدة قالها فى افتتــاح مدرســة باتنة « عاصمة الاوراس » والتى مطلعها :

حثثنا نحو باتنــة المطـايا ... وجئنــاها نزف لها التحـايا
ونهــديها تهــانىء طيبــات ... تنم عن عــواطفنا شـذايا
ونذكرها روائع ذكريات ... كوامن فى جوانحنــا خبـايا

وهذه المدينة تستحق كل تحية عطرة مفعمة بالحب والصدق . أليست أخت الأوراس الشــامخ . ثم أليست جارة (توقر) الخصيب الجميل :

أليســت اخت أوراس المعــلى ... وجارة توقر الخصب الحنايا

وان المرء ليعجب حقا ، من تردد الجبال فى شعر شعرائنا . انها ظاهرة حقا .. تسترعي النظر ، وتدعو الى التعمق والعجب . انهم كثيرا ما يفتخرون بالجبــال .. هذه الجبال التى رأوا فيهـا مهدا للثورة ، وملاذا للاحرار ... الذين سيحررون وطنهم من العبودية التى طالت ... فسئمها هذا الشعب الذى لا يمكن أن يموت أبدا :-

وكيف يمــوت شعب عبقرى ... به الفتيـان تنبـغ والفتـايا

هذا الشعب الذى اذا ما دعا ابن له فى (توقر) اجابه فى «جرجرة» ابن لايخذل من دعاه واستنجد به :-

اذا ما دعا فى (توقر) ابن اجابه ... بجرجرة ابن ليس يخذل من دعا

ثم ان الشاعر يدعو الى الثورة فى صراحة .,. هذه الثورة التى يقوم بها الحر الجرىء الذى يخوض الوغى فى كتيبة ، ليحرر بلاده .. أو يموت موتة كريمة : ـ

والا من اختاض الوغى فى كتيبة   ليفتح مصرا أو يلاقى بمصرعـــا

وقد استجاب الشعب الجزائرى لهذا النداء ، وحقق للشعراء حلمهم الجميل فى الثورة على العدو الغاصب . فكانت الانطلاقة الكبرى يوم فاتح نوفمبر العظيم الذى كان فاصلا تاريخيا هاما فى حياة الشعب الجزائرى من الناحيتين الفكرية والسياسية .

وسنتحدث عن الشعر الثورى الذى واكب الثورة .. وعبر عن أهدافها ، وسجل انتصاراتها ، فكان بذلك : لسانها الأمين ، وسجلها الوفى ، ومرآتها الصقيلة التى عكست بطولة شعبنا الثائر من أجل الحرية والكرامة الانسانية .

وقبل الانتهـــاء من هذا الفصل ، لابد من الالماح الى أن الشـــعر الجزائرى فى هذه المرحلة قد تطور تطورا محســـوسا من الناحيتين : ناحية الصياغة ، وناحية الموضوع .

فمن الناحية التعبيرية ، رأينا من النماذج التى سقناهـــا «كشواهد للتمثيل لا للحصر.» أن الشـــعراء قـــد اعتنوا بالفاظهم اعتناء يبدو فى بعدهم عن الالفاظ الجوفاء الفارغة المألوفة ـ فالالفاظ بسيطة منغمة ، والموســـيقى تشيع فى القصيدة ، والوحدة الموضـــوعية ••• توافرت بشكل ملحوظ ، وقلت الأخطاء اللغوية والعروضية بصورة واضحة .

اما من الناحية الموضوعية ، فقد رأينا : كيف تعددت الاغراض ، واختلفت الموضوعات . واخـذ الشـــعراء يبحثون عن مواضع جديدة فبالاضافة الى الموضوعات الوطنية والسياسية والقومية رأينا كيف أن البعض من شعرائنا حـــاول أن يطرق مواضع أخرى ، مثل الوصـــف والحديث عن الطبيعة . بل هناك من ناجى الكون فى حكمة لا تخلو من طرافة .

وقد شاع فى معظم قصـــائد هذه الفترة الحـــديث عن : الحرية والاستقلال والعلم ، والنضال ، والدعوة الى العلم والثقافة ، والاتجاه نحو الشرق العربى .,. الى غير ذلك من المواضيع والاغراض التى تحدث عنها شعراؤنا ، وسجلوها بصـــدق واخلاص ، فكانوا بذلك : مرآة للشعب الجزائرى الذى كان يتحفز لمرحلة أخرى جديدة •• مرحلـــة الثورة ، والخروج من السلبية الى الايجابية الفعالة .

وباختصار : فالشعر الجزائرى قد قطع فى هذه المرحلة شوطا بعيدا نحو النضوج والاكتمال، ليكون خميرة طيبة لأدب ثورى جديد .. أدب ما بعد الثورة ، وهو الأدب الذى واكب المعركة ، وعبر عنها أصدق تعبير . وهو ما سنفرد له فصلا خاصا بحول الله .

الفصل الرابع

شـــعر الثورة

١ ـ أول نوفمبر :

كانت انطلاقة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، فاصلا تاريخيا بارزا فى حياة الجزائر . فقد تغيرت فيها المفاهيم ، وانقلبت الاشياء رأسا على عقب ، وتغيرت فيها حيـــاة الشعب وتفكيره ونظـــــره الى الفكر والأدب والسياسة وشتى نواحى الحياة الاخرى ..

لقد بدأ الشعب حياة جديدة كل الجدة منذ الثورة المباركة . بعد أن وجد نفسه ... وقد كانت تتخبط فى متاهات من القلق والتذبذب والحيرة القاتلة . فالسياسة قد أفلست ، والزعماء المحترفون قدبرهنوا على عجز تام لفهم الشعب ومطالبه الجوهرية . فاخذ الشعب يتطلع الى زعامات جديدة ، وقيادات جديدة تنتشـــله من هوة اليأس التى اوشك ان يتردى فيها بسبب تطاحن (الساسةالمحترفين) على الزعامة، وعلى الكراسى الوثيرة المريحة ، وتركوا الشعب يجتر آلامه فى صمت ، وتكاد الغصــــة تخنقه وتورده موارد الهلاك واليأس المميت ، ولعل خير قصيدة تعبر عن هذه الفترة ، فترة ما قبل الثورة بقليل ، قصيدة الشاعر « محمد العيد » الذى أفصح عن قلق الشعب وعذابه اذ يقول :

يا فؤادا به احتــرق	لاعج الهم فاحتـــرق
ما عسى ينفع الأسى	امة شـــملها افتــرق
من لحــيران فى الدجى	مسه الضــر والأرق
يخبط الليـــل ســاريا	متعبــا عمـه العــرق
كلما شام بارقا	خاله بالمنى بــرق
ويحه ضـــاع كل ما	فى الوغى من دم هــرق

وهى قصيدة بعنوان (كيف يرجو الهـــدوء) ... تعبر بصـــــدق عن شعور الشعب قبل الثورة ... بانه اصبح وحيدا فى الميدان ، بعد أن تخلى زعماؤه عن أهدافه ومراميه التى ضحى من اجلها طويلا .. فى ثورات متتابعة ، قل نظيرها بين الثورات وبين الشعوب .

فلما جاءت ثورة نوفمبر .. ارتمى فى أحضــــانها الشعب بكل ماالديه ، وكرس لها جهوده ، وبذل دمه وضحاياه من أجلها . فقد وجد فيه متنفسه من الحرمان الذى عاناه من الحكم الاجنبى ، كما وجــد فيها الأمل المرتجى فى تحقيق احلامه وامانيه . ووجد فيها التعبير الحقيقى عن احســاسه ومتطلباته . وبهذا : دخل فى مرحـــلة حاسمة

جدية .. مرحلة الثورة والانطلاق والتعبير بالقوة والدم عن مطالبه . وبات « أول نوفمبر » يوما خالدا فى تاريخ الجزائر · وباتت « ليلة نوفمبر » ليلة من أخلد الليالى فى نفوس الجزائريين . انها « ليلة القدر الكبرى » · كما سماها الشاعر « مفدى زكريا » ·.

وكان من الطبيعى أن يتحدث شعراؤنا عن هـــذه الليلة ، وينوهوا بأول نوفمبر رمز الثورة وبداية الانفجار .

وهذه قصيدة بعنوان (ليلة القدر الكبرى) للشاعر « مفدى زكريا » يتحدث فيها عن هذه الليلة الخالدة التى دعاها التاريخ .. فاستجابت له ، كما استجابت لنداء الشعب . فهى بحق : ليله القدر الكبرى ، فقد سطع فيها نجم الحـرية ، وانكشـف فيها الحجاب ، وجلى الليل ضاحك القسمات ، واشرقت كواكبه مضـيـئة ملتهبة كالقنابل التى اندلعت فى هذا الليل الجديد . لقد اشعل فتية الجزائر نار الثورة .. ليحرروا وطنهم ،كما هزت(جبهة التحرير) الشعب.. فهب الشعب يجرى الى غاياته البعيدة : ــ

معـــا التاريخ ليلك فاستجابا ... «نوفمبر» هل وفيت لنا النصابا ؟
وهل سمع المجيب نداء شـــعب ... فكانت ليلة القـــدر الجـوابا
تبارك ليلك الميمـــون نجمـــا ... وجل جلاله هتـــك الحجـــابا
زكت وثباته عن ألف شـــهر ... قضاها فيـــك يلتحف السرابا
تجلى ضـــاحك القسمات تحكى ... كواكبه قنـــابله لهـــابا
بناشـــئة هناك أشـــد وطئـــا ... وأقـــوم منطقـــا واحـــد نابا
مضت كالشهب وانحدرت شظايا ... تلهب فى دجنتهـــا التهـــابا
وهزت « جبهـــة التحرير » شعبا ... فهب الشعب ينصب انصـــبابا

وفى هذه الليلة الفريدة ، لعلع صوت البارود من « جبل الشالعلع » فتجاوبت معه جبال « جرجرة » وأطلقت هى الأخرى الجعاب ، وشـــبت فى ذرى (وهران) نار الثورة · فاستجاب لها « برج مدين » هو الآخر · انه جهاد دوخ الدنيا قاطبة · وزلزل سياسة فرنسا · جهـــاد شعب أناب عنه أزيز الرصاص ، ليناقش الغاصب ··· الذى ايقظته القنابل من سباته وعمايته وكشفت عن ناظريه النقاب :

ولعلع من شلعلع ذو بيـــان ... فاطلق فـــوق جرجـرة الجعابا
وشبت فى ذرى (وهران) نار ... رآها برج « مدين » فـــستجابا
جهاد دوخ الدنيـــــا وألقى ... هنالك فى سياستهـــا اضطرابا
وزلزل من صياصيها فرنســـا ... وأوقع فى حكـــومتها انقـــلابا
وأوفدت الرصـــاص ينوب عنها ... يناقش غاصب الشعب الحســـابا
فايقظت القنـــابل من تعـــامى ... وأســـدل فوق ناظره النقـــابا

والواقع : انه بقدر ما أشعر بالمتعة الذهنية والعاطفية ··· وأنا أقرأ شعر «مفدى » ··· أشعر أيضا بالحرج ، بل بالضيق من مفاجآته · من هذا الانتقال المفاجىء من موضوع الى آخر ، ومن غرض الى غـــرض · فهذا الشاعر لا يهتم بوحدة القصيدة وعضويتها · (ولعل هـــذه ظاهرة

بارزة في شعرنا الحديث) • ترى الشاعر يتنقل بك من موضـــوع الى آخر ، في نفس القصيدة الواحدة ، دون تمهيد ، ودون موجب لذلك •• سوى الاطالة في القصيدة ؛ وسوى أن تكون قصيدته بلغت السبعين أو أكثر في أبياتها • كما فعل مفدي في هذه القصيدة التي تحدث فيهـــا عن هلال نوفمبر •• شهر الثورة ، ثم انتقـــل ــ فجأة ــ الى الحديث عن الصحراء ، ثم عن أشياء أخرى غير الصحراء ، كالحديث عن السياسة وتضحيات الشعب ، وكان من حقه أن يفرد لكـــل غرض حديثا خاصا • فالتسلسل المنطقي يقتضي ان يكون الحـديث عن اول نوفمبر •• مربوطا بالحديث عن الثورة • وعن الشعب وأهدافه ، وعن تكتل الشعب ، وعن ماضيه الطويل في النضال • أما الحديث عن الصحراء أو غيرهـــا ••• فله موضـــوع آخر • ولا يصح ــ مطلقا ــ ان يكون تداعي المعـــاني هو المبرر لهذا الخلط والاضطراب • وبالرغم من كل هذا ، فحديث الشـــاعر عن الصحراء حديث رائع لا يمكن اغفاله •

ان تصويره للصحراء ، ووصفه لحيـــاة أهلها ومناظرها ••• شيء معجز حقا ، ويدعو الى الاعجاب والفخر • لقد تحدث الشاعر عن صحرائنا الجميلة ، هذه الصحراء التي تفجر منها الذهب الاسود فأسال لعـــاب العدو ، هذه الصحراء التي ضحينا بدمائنا من أجلها ، ففتحنا بجهـادنا بابا للخلد وطريقا للمجد :

وفجـر بئر « مســـعود » بلال	فأذن واســـتمال له الرقـــابا
وكبـر للجهـــاد بها فقمنـــا	ننضـــح بالدم النـالي الترابا
شـــققنا فوقها للمجد طرقـــا	وفتحنا بهـــا للخلد بابـــا

ان صحراءنا جميلة ، فيها جنات عدن • فيها الثروة تنســـاب ايما انسياب ، فيها كنوز عامرة بالخيرات ، فيها الذهب الاســـود ؛وفيهاالتمر الطيب الجنى ، فيها السحر والشعر ، فيها الادب والعلم والجمال :

وفي صحرائنا جنات عـــدن	لها تنســـاب ثروتنا انســـيابا
وفي صحرائنا الكبرى كنـــوز	تطارد عن مواقعهـــا الغـرابا
وفي صحرائنا تبر وتمـــــر	كلا الذهبين راق بها وطـــابا
وفي صحرائنا سحر وشـــعر	كلا الملكين حط بها الركابـــا
وفي صـــحرائنا أدب وعلـــم	زكى بهمـــا المثقف واســـتطابا

أما واحات صحرائنا الجميلة ؛ ففيها ظل ظليل ، وماء وفير ، ففي سمائها قمر منير نطارحه الاحاديث العذبة ، وتحت خيامها تختبيء العيون الزاخرة بالثروة التي أسالت لعاب الدنيا :

وفي واحاتنـــــا ظل ظليـل	تفور بها نواعرها حبـــــابا
وفوق ســـمائها قمـــر منير	نطارحه الأحـــاديث العـــذابا
وتحت خيامها انحبست عيـــون	اســـالت من فم الدنيا لعـــابا

هذه الصحراء التي هزت (مريم) يوما نخيلها ••• فاسقطت منها الرطب الزكي ، هذه النخيل التي يرتاح اليها الغنام وهو يرسل الغـام

الناى العذبة الساحرة • انه يدلى فى الغدير العذب ساقه •• يداعب مياهه الحلوة ، ويغترف منها بيديه ليطفىء ظمأه ، قرير العين فى هذه الفلوات الشاسعة • ولكنه اليوم : أصبح يعاف الناس ، يعاف هذه الذئاب التى كدرت صفو حياته البريئة • فقد كان لا يعرف ـ فى هذه الجنة ـ النفاق والخداع ولا خيانة الاصدقاء • ولكن : منذ رأى هؤلاء الأغراب •• انقلب هناؤه الى شقاء ، وباتت حياته كلها عذابا مستمرا :

وهزت مريم العذراء نخـــــــلا   فاسقطت الفلوزج والرطـــــابا
يدغدغ تحتها الغنام نايـــــــا   فيطلق من فم الغنم الربابـــــا
يدلى فى الغدير الحلو ســـاقا   وبالكفين يغترف الشرابـــــا
قرير العين فى الفلوات أضـحى   يعـــاف الناس مذ ألف الذئابا
فمـــا يدرى بجنته نفاقـــا   ولا كذبا ولا خـــان الصحابا

وهناك فوق هذا كله •• هناك الحـــادى الذى يناغى عيسه وهى تطأ منـــابع البترول • ويهمز خيله الأصيلة يناغيها وهو نشـــوان ويشدو على خطواتها بصوته الهادى الذى يبعث فيها النشوة ، فتطوى المراحل الشاسعة ، وتقطع الفلوات والبرايا •• دون كلل أو فتـــور ، وتنصت الى اغانيه فى لذة فتنسى تعبهـا وعذابها مثله تماما • انها تسعى فوق هـــذه الرمال ، وهى لا تدرى أنها تمشى وتحت نعالها استقلال البلاد ، هذا الاستقلال الذى يلاقى الصعاب فى منظمة الأمم المتحدة •

وفوق منابع البترول حــاد   يناغى العيس والخيل العـــرابا
على خطواتها نشوان يشــدو   فتطوى فى مراحلها اللبـــابا
تساجله الاغانى وهى نشـوى   فتنسيــه وينسيها العـــذابا
فما تدرى المطايا وهى تسـعى   أدسن الشعب أم دسن الشعابا ؟
وتحت نعالهـــا استقلال شـعب   يلاقى فى المنظمة الصـــعابا

هذه قصة الصحراء ، وهى قصة شعب كامل كما صورها الشاعر الكبير ، صـــورها أجمل تصـــوير ، وابان بوضوح تعلق الشعب بكل شبر من أرض الوطن • وقد وفق الشاعر ـ الى أبعد حد ـ فى تصـــوير الصحراء ، وفى وصفها ، ووصف حياة أهلها وأخلاقهم ، وما فيهـــا من مناظر ساحرة ••• بأسلوب مشرق ساحر ، وفى نغمة هادئة رقيقـــة تحبب اليك الصحراء ••• برغم حرها وشمسها المحرقة •

ان « مفدى زكريا » قد بلغ الروعة والاعجاب فى هذه القصـــيدة ، بل لم نقرأ لشاعر وصفا للصحراء بمثل هذه النغمة الرقيقة ، والنفس الحلو الهادىء ، والتعبير البسيط الخلاب والانفعال الصادق المخلص ، والعاطفة الجياشة الصادقة • ولا غرو فى ذلك : فالصحراء الجزائرية •• مهد السحر والجمال ، ومرتع الشعر والخيال ، ومنبت الأدباء والشعراء ، ومهد الذكاء والقريحة الوقادة • ثم : انها الآن أكبر قضية ومشـــكلة تتصادم حولها الرغبات ••• لما تحمله من كنوز وثروات ضخمة • ويكفى أنها كانت السبب فى نسف المفاوضات الجزائرية الفرنسية فى المرتين السالفتين •

وكنت حريا ان استمر في درس هـــذه القصيدة ونقل باقيها الى القارىء الكريم ·· حتى يكون أكثر الماما بالموضوع الذى نحن بصدد دراسته ، ولكن طولها : اذ تبلغ حوالى الثمانين بيتا ، ثم الخـــوف من الاطالة · كل هذا جعلني اكتفى بهذه الفقرات التى جئت بها للتمثيل من شعر « مفدى » في أول نوفمبر ··· شهر الثورة المباركة ·

ولابد من جولة أخرى مع شـــاعر شاب هزته (ثورة نوفمبر) فقال قصيدة ـ هو الآخر ـ في هذا الشهر ، بعنوان : (نوفمبر) · فالشاعر (صالح الخرفى) قد بايع هذا الشهر ·· لانه شهر البطولات ـ والمواقف الخالدة ، ففيه بدأ فجر الحـــرية ، ومنه انقدح زناد الثـــورة ·· فتفجر بركانها ، وفيه انطلقت الرصاصة الاولى التى اهتزت لها أرض الجزائر من أقصـــاها الى أقصاها · ففي هذا اشهر سال دم الاحرار ليروى ارض الوطن ، وينعش ثراها الذى أجدب ، ان هذا الشـــهر قد خبـــأ ليلة معجزة ··· معجزة ظهرت للناس بعـــد أن ظنـــوا ان عصر المعجزات قد ولى · لقد وثب فيه الاحرار ليعلنوها حربا على أعداء الجزائر :

بايعت من بين الشهور (نوفمبرا) ورفعت منه لصوت شعبى منبرا
شـهر المواقف والبطولة قف بنـا في مسمع الدنيا وسـجل للورى
فلأنت مطلع فجـــرنا وزناد بر كان الثورة كمينــه فتفجـــرا
دوت بمطلعك الخصيب رصاصــة فاهتزت (البيضاء) وانتشت الذرا
وانداح فجرك عن دصبب من دم الا حـرار فانتعش الجديب وأزهرا
خبـأت معجزة تمخض ليلك الد اجى بها والارض في سنة الكرى
يا وثبة الأحرار منـا ، يا (نوفمبر) لما تزل علمــــا لقافلة السرى

انه شهر الثورة ، شهر تقدس فيه كل الأشـياء المهولة ، فقد قدس فيه الشاعر ··· النار التى تلتهم الدجى ، قدس فيه الدمع ، قدس فيـه الموت الذى يفتخر به كل من يعلو المقصلة من أجل وطنه وحرية بلاده ، قدس فيه الشيب الذى خضب بالدم ، قدس فيـــه الطفل الذى يلفظ انفاسه ، قدس فيه هذه الشاهقات ، هذه الجبال الشامخات ، بما فيهـا من ثلوج وصخور عاتية :ـ

قدست فيك النار تلتهم الدجى فتحيل ظلمته لهيبا احمـــــرا
قدست فيك الدمع ، جف بمقلـة أغفت لتكتحـــل الصباح المسفرا
قدست فيك الموت مفتخرا بمن يعلو المقاصل كى يتيه ويفخــرا
والشيب خضب بالدماء فما احتفى بالعمر صوح نبته أم ازهرا
والطفل يلفظ بالطوى أنفاســـه ثدياه خيطـا بالرصاص وما درى
قدست فيك الشاهقات ثلوجهـا وصخورها وانمت منها المشـعرا

وبعد هذا الحديث عن شهور الثـــورة والاشادة بفضله ، ينتقل الشاعر الى الحديث عن العالم العربى ··· عن كل بلد من بلـــداله ··· من الخليج الى المحيط · ولكنه انتقال مفاجىء ، مثل الذى رأيناه لدى مفدى في قصيدته السابقة · وكان في مقدور الشـــاعر أن يكتفى بالحديث عن نوفمبر ، ثم يعنون الباقى من القصـــيدة بعنوان آخر « كالوحدة » او

« ثورة القومية العربية » ... مثلا ، فيتجنب بذلك هذا القفز والوثب الذى لا داعى له .

وقد يقال أنه أراد أن يتحدث عن الثورة الشاملة التى تجتاح العالم العربى فى هذه الفترة ، وهو ما يجب أن يهتم به شعراؤنا ، لأن قضية العروبة ... قضية واحدة فى مغربها أو مشرقها . ولكن هـذا ، يصبح أن يكون مبرزا ... لو أن الشاعر قد مهد للانتقال المفاجىء بتمهيد يتماشى مع التسلسل المنطقى للأشياء ، والربط بينها برباط وثيق ، أما أن ينتقل من نوفمبر ، الى ثورة المغرب العربى ، ثم لليبيا ثم .. الى آخر ما ذكر ... من حديث عن ثورات العالم العربى ... دون أن يهيىء الاذهان الى ذلك ، فهذا يعد عيبا من الناحية الفنية للشعر ، ويعد عيبا فى بناء القصيدة . ولكن مع هذا : نلتمس عذرا للشاعر الذى طغت عليه عاطفته واحساسه بعروبته ، فضرب بقيود الفن عرض الحائط ويشفع له احساسه الصادق ، وخياله الجموح .. الذى حن الى الوحـدة الشاملة لوطنه العربى ، كما هزته هذه الثورات التى تجاوبت بها أصقاع العالم العربى : فى المغرب العربى ، فى تونس الخضراء ، فى المغرب الاقصى، فى ليبيا الحرة ، فى الجبل الاخضر بعمان :ــ

يا ثورة فى (المغرب العربى) وحدت القلوب ووثقت فيه العرى
امست بها (الخضراء) حمراء الروابى كل شبر عبأته معسكرا
(والمغرب الاقصى) تطلع زاحفا فى ظل رايتها يسـير مظفرا
يا وثبة فى (ليبيا) لو عاشها (المختار) هلل للجهاد وكبـرا
يا صيحة فى شرقنا العـربى تحدو للعائدين وتستفز الاخضرا
يا اخوة الجبل الاشم لكم نداء رددته (الونشريس وجرجرا)
جرحان نحن وانتم فى ملتقى الروايات وحدنا الضمـاد وأصهرا

ثم هناك اخوة لنا ، هناك وطن سليب لابد من استرجاعه ، هـذا الوطن : هـو « فلسطين» التى لابد أن نعـود اليها ونطرد منهـا أبناء صهيون الدخلاء :ــ

يا اخوة الوطن السليب لنا غد سيلوح ملتهب المطالع احمرا
قسما،ستجمعنا (ليافا) عودةالنازى،اذا انبلج الصباح واسفرا
عيناك(يا يافا)ستجعل عهد اسرائيل بين جفونها طيفا سرى

وهناك ثورة عارمة أخرى ، ثورة عربية فى (بور سعيد) التى حطمت احلام المستعمرين وقضت على آمالهم ، لقد حنت فيها « دار لقمان » الى أن تستضيف الطامعين مرة أخـــرى ، تأسر الاحفاد بعد أن أسرت الاجداد :ــ

يا ثورة بور سعيد تجــاوبت أصـــداء غضبتها تهز الابحرا
يا شهر حنت دار (لقمان) الى أن تستضيف الطامعين وتأسرا
فابعث لها «ديجول» يخلف «جده» فنزيلها بالامس طاب له القرى
يا موجة غمرت أعالى النيل ، ثم عمت (أسوانه) و (الاقصرا)

ثم يستمر الشاعر فى ذكر البلدان العربية ، يذكر ارض الرافدين،

والأرز ، والحرم الأمين ، وقطر ؛ والبحرين ؛ والكويت . يذكر كل ذلك في نغمة حلوة ، تثير في النفس حب العروبة ، والتغنى بأمجادها وتاريخها المشترك ؛ وماضيها المشرق السعيد .

ويعود الى الحديث عن شهر نوفمبر ، وعن ثورة نوفمبر .. التى الهبت أرض افريقيا واشعلت فيها الثورات :

يا شهرنا الدامي . سمعتك زارة دوت (بافريقيا) فالهبت الثرى
ورأتك عيني في رحاب البيد عاصفة ، تسهد من طغى وتجبرا

ثم يعرج الشاعر في قصيدته الى الحديث عن الصحراء ، هـــذه الارض التى سال لعاب فرنسا ودول الاستعمار على ما فيها من كنوز وخيرات . هذه الصحراء التى أقسم الشاعر بالرمضاء فيها ، وبالرياح الهوج ، وبالناقة الوجنـــاء .. التى تخب فيها واقسم بالحادي ، وبالفصحى ، وبالخيمة السوداء .. وبليلها الانيس ، وأقسم بنفطها الذى عشق سواده . وأقسم بكل هذا .. باننا مستعدون لنعيد ذكرى القادسية، وسنشنها حربا طاحنة تطيح بأعداء العروبة .. هؤلاء الذين يتاجرون بالحروب . وقد باع فيها أجدادنا واشتروا ، فهم فرسان حومتها ، ونحن أبناء هؤلاء الاجداد الذين لا يخشون الحرب ولا يهابون الموت :

يا من على الصحراء سال لعابهم : كم موردا فيها (ساوا : هل أصدرا ؟
اقسمت بالرمضاء فيها .. بالرياح الهوج ، تنتعل الجديب المقفرا
بالناقة الوجنـــاء فيها ، لم تزل عربية الخـــطوات شامخة الذرا
اقسمت بالصحراء مهدا لانبثاق الوحي نقـــاها « حراء » وطهرا
بالخيمة الســـوداء بالليل الأنيس بنارها ما انفك طاني القـــرى
بالنفط في الصحراء عشقت سواده الداجي وعفت به النضار الاصفرا
بالذرة الرعناء ، اقعـــد راجـــلا ، اشعاعها الودى واعمى مبصرا
اقسمت بالصحراء مهدا لانبثاق الوحي نقـــاها « حراء » وطهـــرا
سنعيد ذكرى ((القادسية)) للنهى ، تهوى بكسرى او تطيح بقيصرا
ان كنتم تجار حـــرب ، ان من أجـــدادنا من باع فيها واشـــترى
فرسان حومتها ؟ سلو صـــهواتها كم اسرجت بابن الوليد وعنترا

وهكذا نرى أسلوبين متمايزين في وصف الصحراء ، فكل تناولهـــا بطريق غير الطريق التى تناولها به الآخر . فقد اختار « مفدى » طريق الفن . واختار « الخرفي » طريق الثورة . فالأول تحدث عن الصحراء بلغة الشاعر الفنان . والثانى تحدث عنها بلغة الشـــاعر الثائر وفرق بين الاسلوبين فعند « مفدى » تحس بالعطف ، وبالتعبير الدافىء ، وبالنغمة المنسابة كمزمار الراعي ، وتشعر بالحب للصحراء من خلال هذه الصور والالوان التى لون بها الشاعر قصيدته . في حين أنك تشعر بالاعجاب والفخر بما في الصحراء من أشياء لا توجد في غيرها . وفرق بين الحب والاعجاب ، وبين الفن والواقع . فقد اختار « الخرفي » الجزالة ، وفخامة اللفظ الذى يتناسب مع الثورة ، ويتماشى مع قعقعة السلاح ، ورنة البارود . وله وثبات جريئة مثل قوله :ـ

ان كنتم تجار حرب ، ان من أجدادنا من باع فيها واشترى

وغيرها من الأبيات التى تبعث فى النفس الفخر والاعجاب ، وتجعلك تصفق لروعة البيان فيها . ولم أنقل باقى القصيدة .. لأنها طويلة جدا . والمقام لا يسمح بنقلها كلها .

هذه بعض الملاحظات على هاتين القصيدتين اللتين قيلتا فى نوفمبر « شهر الثورة » ولم أعثر لغير هذين الشاعرين من شعرائنا الذين اهتموا بالحديث عن شهر الثورة ، وكان الاجدر بشعرائنا : أن يهتموا بذكرى هذا الشهر ، لأنه أول عيد قومى ، وأول يوم انطلق فيه صوت الشعب مدويا ومعلنا ارادته فى الحياة الحرة الكريمة ، وأول يوم انطلقت منه ثورتنا الكبرى التى توجت الثورات ، بل أشعلت الثورات فى أفريقيا ، ومهدت لتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها .

وليس هناك أى مبرر لشعرائنا إطلاقا فى سكوتهم وصمتهم هذا ، وكنت أرجو أن أعثر على قصائد أخرى فى هذا الموضوع حتى أقارن بينها ، وأوازن ، وأحكم عليها ، ولكن لم اجد شيئا من هذا . وارجو أن أكون مخطئا فى تقديرى فأرى ما يحقق رجائى أو يكذب ظنى »

٢ ـ الشعراء والشعب

من الحق أن نعترف أن شعراءنا حاولوا أن يعبروا عن احداث شعبهم ويسايروا وثباته الجريئة ، ويمشوا معه فى حلبة الكفاح فينشدوا له أهازيج النصر الذى حققه بدمه الغالى ، ويتغنوا بأمجاده ، ويخففوا من آلامه ، ويسجلوا مراحل كفاحه .. وما تعرض له فى هذا الكفاح .

بيد أننا نلاحظ أيضا أنهم الى الآن لم يعنوا بالجوانب الهامة لحياة الشعب ، ولم يعتنوا بأشياء هى من صميم الشعب ، فلا يزال شعراؤنا تجذبهم الناحية السياسية أكثر مما تجذبهم النواحى الاخرى ، فليس هناك حديث عن الفلاح الجزائرى الذى غذى الثورة بدمه وعرقه .

ولا حديث عن الفدائى الذى ضرب الرقم القياسى فى البطولة النادرة التى لم يسبق لشعب من الشعوب أن رأى مثلها فى أى ثورة من الثورات الفدائى الجزائرى الذى يقف فى قلب فرنسا نفسها ، وهو يحمل روحه فى يده ، ليبرهن على شجاعة شعبه ، وفدائيته ؛ وبطولته النادرة وليس هناك من اهتم بحياة الصانع والتاجر ورجل الشارع الذى بات عصب الثورة وعرقها الحساس . وليس هناك من قال ملحمة فى ابطال الجبال الذين ردد العالم صدى بطولاتهم وتضحياتهم الفذة ، ولا اهتموا بالمرأة الجزائرية التى هزت ضمير العالم بشجاعتها وتضحياتها التى أصبحت مضرب المثل .

وليس معنى هذا أن شعراءنا لم يتعرضوا لهذه الموضوعات الحساسة ، وانما لم يوفوها حقها ، ولم يولوها ما تستحقه من عناية واهتمام . فقد نجد مقطوعة أو قصيدة لشاعر قد تعرض فيها لبعض هذه الموضوعات ، ولكن هذا لا يكفى ، اننا نريد من شعرائنا أن يعيشوا ثورتهم من شتى النواحى فيعبروا عن احلام شعبهم ، وعن مشاعره ، وعن أفكاره ، وعن طموحه ، وعن كل حركة من حركاته ، ويعبروا عن هذه الوحدة الشاملة لجميع طبقاته التى وقفت مع الثورة ، ووهبت كل ما تملكه من اجل

انتصارها ونجاحها ، ولو ذهبنا نعد القصائد التى هى من هذا القبيل ، لوجدناها تعد على رءوس الاصابع . وسنتعرض لها فى هذه الدراسة بشىء من الايجاز .

وأعتقد أن أول قصيدة ظهرت للثورة فى أول الثورة هى قصيدة الشاعر « سعد الله » بعنوان « احتراق » .

فقد صدرت هذه القصيدة بتاريخ ١٩٥٥/٢/١١ ، ولم نعثر على غيرها من شعر الثورة فى هذه الفترة التى قطعت فيها « الثورة » مرحلة هائلة . وقد أهداها الى « شعراء الأبراج » كما سماهم . وهو يقصد أولئك الذين لم تحرك نفوسهم هذه الثورة العارمة . ولم يهتموا بما يجرى فى وطنهم .

فالمقطوعة الأولى تأنيب للشعراء ولوم وعتاب لهم على هذا السكوت الذى لا مبرر له سوى الجبن . ثم يخاطب الشعب بهذه النغمة المؤمنة بالشعب :

أيا شعب أنت وجودى وحبى   وايمانى الفائض المستراق
ولست أؤمل غير العناق   يعيدك خالدا .. نعيمك يفرى
احالك ظلما – زمان بغى   جحيما يفوح بلحم الرقاق

والواقع أن القصيدة ضعيفة مهلهلة من الناحية الصياغية التعبيرية ليس فيها تجديد ، ولا فيها موسيقا ، ولا ايقاع شعرى جميل ، بل ان كثيرا من تعابيرها غث فج ، لا حياة فيها ولا ماء مثل – لحم الرقاق – تجرعه العاديات الزؤام .

ولكن قيمتها – فى الواقع – ترجع الى الناحية التاريخية .. أكثر مما ترجع الى الناحية الفنية . فسعد الله من أوائل الشعراء الذين أحسوا بآلام الشعب وعبروا عن احساسهم . هذه دون تقية أو مواربة .

وهناك شاعر آخر كان له فضل السبق أيضا فى مشاركة الشعب أحزانه وآلامه وتحدث عن مشكلاته وما تعرض له من محن على أيدى الجلادين الفرنسيين هذا الشاعر ، هو : « أحمد الباتنى » فقد نشر قصيدة بعنوان «مشبوه» بتاريخ ١٩٥٤/٤/١ وقد مر على الثورة بضعة شهور " وهذه القصيدة تسجل حادثا هاما بارزا فى حياة الشعب الجزائرى فقد سنت فرنسا قانونا جديدا لتبيد به الشعب الجزائرى ، قانونا من قوانين « شريعة الغاب » . تعمد اليه كلما أرادت أن تنتقم من الشعب ومن أبنائه، هو قانون « المشبوه » فعندما تريد أن تلقى القبض على أحد توجه اليه هذه التهمة «تهمة المشبوه» لتلقى به فى السجن أو تقتله . والقصيدة تسجل مرحلة هامة من مراحل الأحداث التى مر بها شعبنا وتعطينا صورة صادقة لما كان – وما زال – يتعرض له شعبنا منذ أول الثورة الى اليوم .

يقول الشاعر :

وامضوا لنا فى البيت فانتهبوه   قالوا خلوه فانه مشبوه
ما ناله بالكدح قد سلبوه   واذا تأبى للردى وهبوه
لن يرحموه فانه مشبوه

.. ويمضي الشاعر في هذه النغمة المتألمة ، يتحدث عن هـذا المشبوه الذي قيدوه بالسلاسل ، وساقوه الى حيث يلاقي صنوفا من العذاب ، وألوانا من التعذيب ، وكيف بكى أبوه وأمه وبنوه ·· هؤلاء الصبية الذين لا يعرفون ما معنى المشبوه ! ولماذا يساق أبوهم مغللا في السلاسل ·· فيلوذون بأمهم يسألونها عن كل هذا :

سألوا « بذل اليتم » : أماه لم ساروا به ـ يا أم ـ مشدود الوثاق
قالت ـ وعين القلب تبكي دما ومضرج الخدين صوحه الفراق
قالت : بني ··· أبوكمو مشبوه

ثم يتجه الشاعر يطلب اللطف من الله ·· فلماذا هذا الشقاء ·· ؟ ولماذا يتعرض شعب لكل هذه الويلات ·· وليس فيه مجرم واحد ؟ لماذا تشن فرنسا حربها القذرة على شعب لم يعتد على حقوق أحد ؟ .. ثم يختم القصيدة بهذه الزفرة الصادقة :

رباه لطفك ·· ليس فينا مجرم والقوم شنوها على البرآء
حـربا عوانا ، نارها تتضرم من وقعها انا لفي بأسـاء
رباه لطفك ·· كلنـا مشبوه

ومن الانصاف أن نعترف بأن الشاعر قد بلغ الروعة في هذه القصيدة، ليس فقط لانه عبر عن احساسه تجاه قضية هامة ، وتجاه شعبه الذى تعرض للارهاب في هذه الفترة ، وانما لأن القصيدة تزخر بشتى المعاني والتعابير الملونة الاخاذة ، فهذه البساطة في التعبير ـ قالوا خذوه فانه مشبوه ـ وهذا السؤال البريء الساذج ·

سألوه بذل اليتم : أماه لمـا ساروا به ـ يا أم ـ مشدود الوثاق

وهذا الجواب البسيط الحزين : قالت بني ··· أبوكمو مشبوه ·

ثم هذا الدعاء الحار الصاعد من الأعماق ، والذي يعبر عن الاحساس بالظلم الصارخ الذى جرته هذه الحرب على الجزائريين جميعا ·· « رباه لطفك ·· كلنا مشبوه » ·

.. هذه الحشود الكثيرة من الصور والتعابير البسيطة ، وهذه النغمة الجياشة المخلصة ، ثم هذا الجو الشاعري الذي يلف القصيدة كلها ، كل هذه الألوان والصور ، تجعلك تحس فعلا بأنك تعيش مع هذا الشعب ، وتشعر بآلامه ، ومن ثم تجعل القصيدة في القمة من الاداء الفني الممتـاز · وكنت أود لو أن الشاعر لم ينقطع عن قول مثل هذه القصيدة التي اعتبرها من درر شعرنا الحديث · ولكن الشاعر مقل ·· لا يقول الشعر الا نادرا ولكنه اذا قال كان شاعرا في قوله وصادقا في احساسه ·· وعواطفه

قلت في أول هذا المقال : أن شعراءنا لم يهتموا الاهتـمام الكافي بالجوانب الاخرى الهامة في حياة الشعب ، وقلت : ان البعض فقط ·· هم الذين تعرضوا الى هذه النواحي ، ومن هؤلاء الشعراء الذين التفتوا التفاتة سريعة نحو هذه المواضع الحساسة ، من هؤلاء : الشاعر «سعد الله» فقد تحدث في قصيدته (أنشودة المزارع والحقول) تحدث فيها عن حياة

الفلاح الجزائرى ، وعن كده وعرقه وحرمانه ... فى أرض آبائه وأجداده هذا الفلاح الذى لا يجد ــ ان وجد ــ سوى كسرة خبز ، وفراش من حصير وكوخا يأوى اليه .. يجتر فيه آلامه وأحزانه وترتع فيه العفونة :

حتام افترش الحصير ؟

واساكن الكوخ الحقير

واساهر الحرمان والألم المرير

وتلوك جنبى الخشــونة

ويحيطنى قبو العفــونة ؟

هذه هى حالة الفلاح الجزائرى الذى يعيش حياة رتيبة قاسية .. حياة كلها حرمان وشقاء ، فامسه أسود قاتم ، ويومه مضطرب ، أما الغد فهو مبهم ؛ وهو دائما فى مكانه باق لا يتزحزح .

لا غاية تدنو ... ولا أمل طليق

دنيا من الحرمان والدم والشهيق

فالأمس لوح أســود

واليوم موج يصخب

وغدى طريق مبهــم

وانا هنــــا ...

أبدا هنــــا ...

وهذا المقطع يدل على أن الشاعر يجارى به هذه الرومانتيكية فى شعرنا العربى الحديث الذى يميل الى البكاء والانين ، والى الشكاوى .. والتشاؤم الساخط ..

نجد هذه الفكرة ــ خصوصا ــ لدى شعرائنا الشباب الذين اغراهم هذا الدرب الغامض ، فذهبوا ينوحون وينتحبون ، فى حين أن الجدير بهم هو العكس .. تماما ، ففى حياة شعبنا العربى ما يدعو الى التفاؤل ، والى الحماس ، لا السخط والتألم والانتحاب .. والا : فكيف نفسر قول « سعد الله » فى وقت كانت الثورة الجزائرية قد بلغت أوجها . هذه الثورة التى قامت لتحرر الفلاح من الفقر والجهل والعبودية .

فاذا كانت حياة الفلاح فى الماضى ، حياة كلها يؤس وألم ، فحاضره كله أمل ، ومستقبله مشرق مضىء .. لا شك فى ذلك .

ويبدو أن الشاعر قد تفطن الى هذا فى آخر قصيدته اذ يقول : ــ

يا مالكين ...

انا هنــــا

نحن العبيد ..

شبحا واعصارا مبيد

لاشيء يمنـــع سيلنا

ان خفقت في الفكر

عزماتنا وصراخنا ..

ويستمر الشاعر في هذه النغمة التفاؤلية التي تتمـــاشى وواقع الجزائر اليوم .. هــذه الارض الخصبة التي سيتحرر فيهـــا العبيد ، ويصبحون سادة في بلادهم البكر الولود :

في أرضنا الملأى بجنات الحصيد .

سنعيش احرارا وصيد

في أرضنا البكر الولود

ولا شك أن هذه الخاتمة هي التي تتماشى وحياة الفلاح الجزائري بل الشعب كله ، سترجع هذه الارض الى أهلها وسيستغلها الفلاح لنفسه .. ويستمتع بخيراتها هو وأبناؤه من بعده .

والملاحظ أن الشاعر « سعد الله » في هذه القصيدة .. قد سار في ركب الشعر الحر الذى تخفف من قيود الخليـــل وأوزانه ، وجارى روح الشعر الحديث . وشعر « سعد الله » في هذه الفترة .. من هذا القبيل وله قصيدة أخرى على هــــذا النمط بعنوان (طريقي) وشعره في هذه المرحلة أكثر حياة من شعره الذى كان يلتزم فيه بحور الخليل وأوزانه فالرمز الذى يتخذه في تعابيره يعطى اشعاعا للشعر ، وروحا نابضـــة بالحس والحركة في تعابيره . وهو يعتبر من رواد الشعر الحـــر في الجزائر .

وله قصيدة أخرى بعنوان (المروحة) ولا يسمح المقام بالحديث عن هذه القصيدة التي لها أهمية كبيرة ، فقد تحدث فيها الشاعر عن حادث « المروحة » التي زعمت فرنسا أنها السبب في غزو الجزائر .

وهذا اللون من الالتفات الى تاريخ الجزائر .. قليل في شعرنا ، بل نادر .. الى حد العدم ، في حين أنه منبع يزخر بمادة دسمة للشعر . ففي تاريخ الجزائر ـ من الحوادث والمواقف والبطولات ـ ما يصلح أن يكون مادة خصبة لملاحم شعرية باهرة . ولكن شعراءنا ـ سامحهم الله ـ تركوا هذه الجوانب وأهملوها ، وهي جزء من حيـــاة الشعب ، بل هي الشعب نفسه .

اننا نود من شعرائنا ان ينقبوا عن صحائف الماضي .. المشرق منها والقاتم ، والمحزن فيها والمسر ، ومن حق الشاعر أن يقـــول الشعر في

الموضوع الذى تنفعل له نفسه ، وتتجاوب معه أحاسيسه ومشاعرة ، ولكن ليس من حقه أن ينسى أو يغمض عينيه عن أشياء عاشهـــا الشعب ولن تمحى من ذاكرة الزمن .. لانها تاريخ الانسان فى هذه الارض منذ عرف الظلم والعدل ، وعرف الحرب والسلم ، وصارع كل القوى ، قوى الظلم والعدوان . وشعبنا عاش تجارب فذة من واجب شعرائنا ان يسجلوها ويعطوها بعضا من اهتمامهم وعنايتهم ... حتى يو فوا حق الشعر والشعب عليهم .

اننا نريد شيئا من التخصص لدى شعرائنا . وشيئا آخر من الشمول الذى نبتعد به عن هذا التشابه فى الموضوع والاغراض التى يدور حولها شعراؤنا ، ويضربون عليها ، فى وتيرة واحدة ، ونغمة واحدة .

نريد تنوعا فى الأساليب لا نسخا مكررة معادة .. نريد تنوعا فى الموضوعات ، تنوعا فى القوالب والصـــور والأخيلة .. ومن ثم جدة فى الصياغة والمضمون .. كجدة الثورة الجزائرية الجديدة .

وقبل انتهاء المقال : لا بد من الاشارة الى بعض القصائد لشعرائنا الشبان الذين المعوا الى مثل المواضيع التى تحدثنا عليها . فالشاعر « عبد السلام حبيب » قد اهتز لبطولة الفدائى (محمد بن الصادق) الذى قتل الخائن (على شكال) .. اغتاله فى قلب فرنسا وهو بجوار رئيس الجمهورية الفرنسية « المسيو كوتى » . لقد اهتز الشاعر لهذا الحادث فقال قصيدة بعنوان (مصرع خائن) ، قصـــيدة تعتبر من الشعر الثورى الحديث ، الشعر الحر ، وهى مليئة بشحنات وطاقات تعبيرية موحية . يقول الشاعر :

خذها ودمدم من مسدسه رصاص.
خذها فقد حان القصاص.
الويل لك يا خائن الشعب الجريح
ان تستريح .. حتى تموت
سأقتلك .. باسم الوطن .. باسم الجراح الراعفة .
باسم الجزائر والنضال .. خذها رصاصة ثائر .

وهى قصيدة ، بل ملحمة ، صور فيها هـذا الحادث أجمل تصوير ، صور بطولة الفدائى الجزائرى الذى أتى بالأعاجيب ، وصور ذعر فرنسا وخوفها من رصاص هؤلاء الفدائيين .

أما الشاعر « محمد صالح باوه » فقد تحدث عن الثائر .. عن هذا الذى اقسم بالرشاش والمدفع .. وأقسم ان يغسل الجرح برنة البارود .. اقسم بهذا فى قصيدته (الثائر) التى يقول فيها :

اقسمت انى بقيدى بجروحى سوف لاتمسح من عينى دموعى
اقسمت ان تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعى
اقسمت ان تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم احقــاد الجموع

وهناك قصائد أخرى أهتم فيها الشعراء ببعض هذه الجوانب ، مثل قصائد صالح الخرفي « الصاعدون ـ عبد بلا أم » وقصيدة الشاعر خمار « ظلال وأصدقاء » ٠

ومع هذا : فمثل هذه القصائد ـ كما أسلفت ـ تعد على الأصابع ٠٠ ونحن فى أشد الحاجة الى مثلها ، لانها ٠٠ هى وحدها ٠٠ تبرز حقيقة ثورتنا ، كثورة انسانية تهدف الى تحرير الانسان فى الجزائر ٠٠ وفى غير الجزائر ٠٠ وتعطى صورة متكاملة شاملة لكل أفراد الشعب وطبقاته .. وتبرز ملامح مجتمعنا الجديد الذى يؤمن بالحق والخير والجمال وبالحرية لكل أبناء البشر دون تميز للجنس أو الدين أو اللغة . فهل يفعل شعراؤنا ؟

هل يقومون بهذا الواجب ؟

اننا لمنتظرون ٠٠

حديث الذرة ٠٠ فى الشعر

ليس من شك فى أن تفجير « القنبلة الذرية » فى صحراء الجزائر ٠٠ كان حدثا هاما ، بل كان أبرز حدث شاهده الشعب الجزائرى فى حياته أثناء هذه الحرب ٠٠ فالمجازر التى ترتكبها فرنسا فى الجزائر ٠٠ تعتبر ـ بالقياس الى هذا الحدث ـ أشياء بسيطة٠ فقد أرادت تدمير الجنس البشرى فى هذه الارض ٠ اختارت ارض الجزائر الثائرة بالذات لتبذر فيهاسم «الذرة» ولتنشر الاشعاعالذرى القاتل .. حتىتبيدالجزائريين بل الافريقيين ٠ انها أرادت أن تشوه الاجيال المقبلة بهذا العمل الاجرامى بل الممعن فى الاجرام .

وكان من الطبيعى أن يتاثر شعراؤنا بهذا الحدث الكبير فى حياة الجزائر ٠ وان يحسوا بمدى خطورته على الانسان فى هذه الارض فتحدث الشاعر « صالح الخرفى » عن هذا الحدث فى قصيدة بعنوان « الجنون الذرى » وقد اختار أن يكون حديثه على لسان أم تناجى ولدها الذى يمثل الجيل الذى سيخرج الى الحياة مشوها مريضا ٠ وتدعو ولدها الى الثورة التى تنسف هؤلاء الذين يعبثون بالقيم الانسانية ، ويحتقرون الانسان الذى ولد على هذى الارض ليعيش فى سلام ٠

ولدى ـ ان سطت عليك الرزايا ... وأشارت لك السما بالمنايا
وسرى فوقنا غبار مبيد ... فترامت صرعى ألوف الضحايا
ولدى : فانتفض معى ومع الالا ... ف فى ثورة تطير شظايا
تنسف العابثين بالبشر الآمن ... والخانقين روح البرايا

ان هذه الام التى ولدت تحت سماء تغشيه سحب الذرة الغاشمة حق لها أن تبكى ولدها ٠ انها قد افتقدته ، وضاع منها طفلها الصغير فحق لها أن تنوح وتذرف الدمع المر ، انها أم شقية حقا :

ضاع عمرى اذ افتقدت عزيزى ... فيك ، سفر المنى وسحر العيون

واذا رمت أن تبوح بسر ... خانك النطق فاحتمى بالسكون
فطويت الأحزان فى كفن الصمـ ... ـت واطرقت مصـــغيا للشجون
ثم أطلقت للأسى لغـــة الدمـ ... ـع واســــلمت أمره للجفــون

ان هؤلاء الذين قضوا على هـذا الطفل أن يعيش فى ظلام حالك ، أو ان يحيا كسيحا مقعدا . ان هؤلاء الذين لم يشفقوا على طفولته البريئة لن تنام عيونهم ، ولن تبصر النور ، ولن يتذوقوا للراحة طعما .

يا عزيزى لن يبصروا النور والاشـ ... ـــماع يوما ومقلتـــاك ظلام
لن يسيروا خطى وانت كســـيح ... ثكلت خطوة الأمور الجسام
ســـهدوا طرفك البرىء بأشبا ... ح الرزايا . انى لهم أن يناموا ؟
ما لهم فى الحيـــاة راحة قلب ... وبهم فى الحياة يشقى الانام

ان هؤلاء الذين استغلوا خيرات هذه الأرض .. لن يجدوا سوى أن يجازوها بهذه القنبلة الماحقة .

غربت شمس عزهم فاســتباحوا ... وطنا شمس عـــزه لا تغيب
وجزاء الجهود قنبـلة التخريـ ... ـب من هولها تميـــد القــلوب

لقد فجروا هذه القنبلة فى صحراء الجزائر .. بعدأن فشلت قنابلهم الأخرى فى جبالها ، ولكن ذرة الرمل ، مثل صخرة الجبل ، كلتاهما سيان فى الدفاع عن هذه الارض ، فاذا وجد جيش الأعداء فى الجبـــال جليدا وثلوجا تجمد أطرافهم فسيجدون فى الصحراء النــــار لتلفحهم وتلهب أجسامهم .. واذا كانوا قد تاهوا فى مجاهل هذه الجبال ، ففى الصحراء هلاكهم .. وفناؤهم النهائى :

فشلت فى الجبال قنبلة البطش فرموا تفجيرها فى الصحارى
ذرة الرمل ، صخرة الجبـــــل ، ســـيان فى الوفاء للدمار
ان تكن قسوة الجبـــال جليدا ان بطش القفـــار لفحة نار
من يتيه فى مجاهل الاطلس الوعـــر ، فصـــحراؤه بغير قرار

أما الشاعر «مفدى زكريا» فهو الآخر قد انفعل لهذا الحادث ، وتاثر بهذه التجربة المدمرة التى فجرتها فرنسا فوق أرضنا .. لتقضى على الجنس البشرى ، لا فى الجزائر فحسب ، ولكن فى أفريقية كلهـــا ، وقد تحدث الشاعر فى قصيدته : (ابن القنبلة الذرية) عن هذا الطفل الذى أول ماتكتحل عيناه ، تكتحل بغبار الذرة السام . ان هذا الطفل يمثل جيلا كاملا سيخرج الى الحياة وكله عاهات وأمراض ومركبات انه يولد أعمى لا يرى الكون الباسم ، ولا يمشى على هذه الارض الا مقعدا « كسيحا » انه

يولد اخرس لا يتكلم ولا تفرح امه ــ وهى تهدهده فى المهد ــ بهذه الكلمة الساحرة :(أماه) .. انه جيل الموت ، جيل الويل ، الجيل المشلول :

ما دهاه .. ويل امه .. ما دهاه ؟ ويلتاه من جيله ويلتاه ؟
ماله فى الحيـــاة يولد أعمى لم ير الكون باسمـا مقلتـاه ؟
ماله مقعـــدا يجرجر رجليـــه ؟ ومـــاذا جنى فشلت يداه ؟
ماله لم تزل تهــــدهده الأ م ، ولم تستمع لهـــا أذناه ؟
ماله اخرس تناجيه فى المهـــ ــد ولم تبتسم لهـــا شفتاه ؟
ولماذا لم يبـك بين ذراعيـــ ــهـا دلالا ، ولم يقـل : أماه ؟
ألهذا الوجود جاء وحيـــدا ؟ أم له فى زمانه أشبـــاه ؟
ويلتـــاه من جعله ويلتـــاه

لقد قذفت به يد الموت الى هذه الحياة ، وسقته فرنسا السم الزعاف قبل ان يخرج الي الوجود ، وعندما خرج .. كان مشوها شكله تشويها مريعا . انه ابن أفريقيا «الشهيد» الذى اتخذت منه فرنسا بتجاربها قربانا لتحطم وهو رضيع ، لقد شوهت خلقته ، وهو بعد : لم يعرف الحياة . ليته لم ير النور ولا خرج الى هذا العالم الحقير ، ليته بقى فى السماء كالشعاع الرفيع المنيع .

قذفتــه الى الحيـــاة يد المـــو ت فلم يقض فى الحيـــاة ربيعـا
وسقته الســـموم فى عالم الغيـ ـب فرنسا فجـــاء شكلا مريعا
ابن افريقيا الشــهيد وقد خر على مذبح الطغـــاة صريعا
تخذت منه « للتجارب » قربانا ، فرنســـا فحطمته رضـــيعا
شوهت خلقه جريمتهـــا الـكبرى وجرته للخراب سريعـــا
ليته ظل فى الفضـــاء بخارا . ليته دام كالشعاع رفيعـــا
ليته ظل فى الســـماء منيعـــا

لقد غدا هذا الجيل ، كالشبح ، كالخيال ، فليس هو حيا يرجى ؛ أو ميتا يوارى فى التراب .. فيستريح ... انه يعيش فى عذاب وبؤس وسط قوم معذبين ، انه جيل العـــذاب يسعى الى الموت رويدا رويدا ، يجتر يأسه فى صمت . ان الداء يطحن جسمه ويحيله الى ذرات سامة ، ولكن ستنبت من حطامه لعنات تطارد فرنسا وتنتقم منها ، وستلطخ فرنسا بالخزى والعار .

شـــبح كالخيـــال لم يك كالحـ ـى فيرجى .. ولم يمت فيـوارى

عاش حيران فى عـــذاب وبؤس بين قوم معـذبين حيـــارى
ظل يسعى الى الفنـــاء رويدا يائســـا لا يغـالب الاقدارا
طحن الداء جسمه واحال الشـــ ـقاء ذراته هبـــاء فطـــارا
نبتت من حطـــامه لعنـــات كالصـواريخ نقمـــة وانفجارا
نازلات على طغـــاة فرنســـا لم تزل كالجحيم تقـــذف نارا
لقنتهـــا عواقب البـــغى سرا بث فيها عدل الســـماء قرارا
حملتهـــا العصور خزيا وعــارا

ان شعب افريقيا الذى ديست كرامته ستنصفه الدنيـــا يوما ما ، وسيحكى الزمان ــ للاجيال المقبلة ــ فضائح المدنية الحديثة ، وسينتقم هذا الشعب لكرامته ، وسيثور .. ويسحق فرنســا الظالمة ، وسيقول لفرنسا . انها هفوة ولعنة للبشرية .

شعب افريقيا ــ ستنصفك الدنـ ـيـــا وتصغى الشـــعوب الأبية
وســيحكى هـــذا الزمان ويروى للبرايا فضـــائح المدنيـــة
فخـذ الثأر من فرنســـا وخلد فى الضـــحايا تلك النفوس الزكية
وانفجر صارخا .. وقل يافرنسا انت فى الارض هفـوة أزليـــة
يافرنســـا .. يا لعنة البشرية

هذه هى رائعة الشاعر « مفدى زكريا » التى صور فيها (تجربة) من أبرز التجارب التى عاشهـــا شعبنا فى ثورته الجبارة ، انها قصيدة فريدة فى نوعها ، انها من القلائد القليلة التى تحدثت عن جيل الذرة ، جيل الدمار جيل الشلل والمركبات ، والشاعر « لا يجارى فى مثل هذه المواضع انه يعرف كيف يعبر عن آلام الانسانية فى نغمة حزينة متألمة »

ولقد أعانه على هذا التعبير هذه الحشـــود المختلفة من الاستفهامات التى تثير الانتباه وتوقظ الخيال ، ثم هذه الصور المتراكمة التى تتعانق فى روعة وبيان ساحر ، ثم هذا الوزن الخفيف الايقاع ، يرق حينا ، ثم يقوى ويشتد حينـــا آخر ، فكأنه البحر ، يهدأ عندما تداعبه نسمات خفيفة ، ثم اذا به هائج مضطرب الى ما ثارت فى أحشـــائه الزوابع والأعاصير ، فترى أمواجه تصطخب فى جنون ، وتوشك أن تغرق الأرض ومن عليها .

والشاعر «مفدى» مولع بالاقتباس الى ابعد حد ، يقتبس من القرآن والحكم والأمثال . كما فى قصيدته التى تحدث فيها عن زلزال الاصنام وكما فى قصيدته التى تحدث فيها عن هلال (نوفمبر) وفى هذه القصيدة وبالرغم من اننى لا أميل كثيرا الى هذا اللون من الادب ، ولـــكن عند « مفدى » الذى يستعمله بمقدار .. أرانى أشعر بأن له مذاقا خاصا

والقلائل هم الذين يعرفون كيف يستعملون هذا اللون من البيان ، بل البديع .. كما يسميه علماء البلاغة .

وأراني مضطرا للاعتراف بأن قصيدة مفدى أوقع في النفس وأكثر تأثيرا وايحاء من قصيدة الشاعر « صالح الخرفي » فقصيدة « الخرفي » يبدو أن التجربة فيها لم تنضج فالتعبير كثيرا مايصاحبه الاضطراب والتكلف ، وكثيرا ما تغلب عليه النزعة التقريرية . هذه النزعة التي ابتعد عنها «مفدى» كل الابتعاد ، أو بعض الابتعاد على الاقل . ثم أن الموسيقى التي تتخلل قصيدة « الخرفي » رتيبة ، وتسير على وتيرة واحدة مما يجعلها باهتة . فليس فيها تموج أو تنوع كالذي نجده عند «مفدى» . ثم ليس عند « الخرفي » تجديد في الصياغة والتعبير فماذا في هذا المطلع .

ولدى ان سطت عليك الرزايا .. واشارت لك السماء بالمنايا

ان هذا التعبير عادى ، يقوله كل من يريد أن يتأنق في حديثه وليس هو « بحال » من التعابير الشعرية الموحية .

وانظر الى هذا المطلع الذي يوحي بشيء مهول .. بشيء تشتاق الى أن تعرفه .

ما دهاه .. ويل أمه .. مادهاه ويلتاه من جيله ويلتاه !

ما له في الحياة يولد اعمى لم تر الكون باسما مقلتاه ؟

وليس غرضنا هنا أن نوازن بين القصيدتين ، أو نقارن بينهما .. بيتا بيتا ، أو فقرة فقرة ، فهذا مما لاتحتمله هذه الدراسة لان ذلك أمر له مقام آخر وانما غرضنا ان ننبه الى تفاوت شعرائنا في تناولهم للتجربة والعمل الفني ، ومضمون القصيدتين واضح ، انه حديث عن تفجير القنبلة الذرية في أرض الجزائر » وماذا ستترك من أثر على الجيل الحاضر والاجيال الآتية ، وقد ادى هذا المضمون «مفدى زكريا» في أبيات قليلة منسقةفي حين أن « الخرفي » قد أطنب دون داع للاطناب ، اذ أن قصيدته تبلغ ضعف قصيدة « مفدى » وليس العيب أن يطيل الشاعر ، ولكن العيب أن يطيل ثم لا يقول جديدا .

وعلى أية حال ، ففضل الشاعرين لا يمكن أن ينكر ، فقد كانا من أوائل شعرائنا ، بل ربما كانا الوحيدين اللذين أحسا بهول وعظم هذه الجريمة التي ارتكبتها فرنسا في أرض الوطن وأرادت أن تقضي على الجنس البشري ارضاء لكبرياء زائف ، وطموح أخرق .. على حساب الشعوب المتطلعة الى حياة كريمة وغد أفضل . وستبقى هذه التجربة سبة في تاريخ فرنسا ، ولعنة تطاردها مدى الزمن .. كما قال « مفدى زكريا » .

الحب والثورة

مما يلفت نظر الدارس للشعر الجزائري الحديث .. خلوه من الحديث عن الحب والغزل ، فمن النادر جدا أن تجد أكثر من قصيدة لشاعر جزائري تحدث فيها عن صباباته وأحلام شبابه ، وما أقل من باح

يحبه أو تغزل بمحبوبته ، وهذا يدعو الى التساؤل الكثير . هل شعراؤنا لا يؤمنون بالحب ؟ وهل هم لم يعشقوا مرة واحدة على الأقل فى حياتهم ؟ ثم لماذا نجد الشاعر اذا ما تعرض لهذا الموضوع نراه يهمهم ولا يفصح . ويرمز دون أن يصرح ؟

ولست أشك فى أن شعراءنا قد مروا بهـــذه التجربة .. فاحبو وتغزلوا ، ولست أشك فى أن لهم شعرا يعبر عن عواطفهم وحبهم ، ولكن هناك أشياء تمنعهم من ذكر هذا الحب والتغزل بالمحبوبة . هناك البيئة الصارمة التى يعيش فيها الشاعر ، هذه البيئة التى تعتبر الحديث عن مثل هذه العاطفة ضربا من الخروج عن التقاليد والعادات التى لها المقام الاول فى قلوب الناس ، ثم هذه الجدية المتزمتة التى عرف بها الشعب الجزائرى .. الجدية فى كل شىء فى حياته الخاصة وفى حياته العامة.. هذه الجدية التى تجعل الطفل الصغير لا يحس بطفولته الساذجة والشاب لا يعرف لشبابه طعما ، وهذه الجدية مرجعها فرط الحساســية الكبيرة المبكرة ، ثم الشعور بهوان منزلة الفرد الجـزائرى وهو يرزح تحت الحكم الاجنبى .. هذا الحكم الجائر الذى جعله لا يفكر الا فى ازالته وتحطيمه !. فهو يحس بالكبت والحرمان والنكد فأنى له أن يلتفت لعواطفه وصبواته، وكيف له أن يتغزل أو يعشق ثم يعبر عن هذا الغزل والعشق ، هـذا هو سبب هذه الجدية التى عهدت فى الشعب الجزائرى وهذا هو أيضـــا سبب سكوت شعرائنا عن الغزل والحب .

ويجب أن نذكر أنه الى عهد قريب جدا كان التفكير فى الزواج فقط يعد ضربا من المروق ، وضربا من خيـــانة الضمير . وقد حرم الكثير من شبابنا الزواج على أنفسهم ما دام وطنهم يرزح تحت حكم الاجنبى ، هـذا شىء يعرفه الكثير من شبابنا ويعرفه الكثير منا . ولعل هذين البيتين من الشاعر (اللقانى) يعبران بجلاء عن حقيقة ما ذكرنا ، يقول الشاعر :

الا .. فدع التغــزل فى غوان فتلك طريقة المستهترينـــــا

فمن صــوت البلاد لنــــا نداء يكاد المرء يســــمعه انينـــا

هذه ليست وجهة نظر الشـــاعر فقط . بل انها هى الفـكرة التى سيطرت على الشعب الجزائرى منذ رزح تحت الحكم الاجنبى وذاق منــه المرارة التى لم يذقها أى شعب من الشعوب التى ابتليت بالاســــتعمار الغربى الحديث . ومن ثمة فقد قل الغزل وذكر الحب فى شعرنا . وكثر الحديث عن النواحى الاخرى . خاصة : الناحية السياسية والوطنيـــة ، وهذه الاسباب نفسها .. هى التى مالت بشعرنا الى الاكثـار من الحديث عن السياسة والحياة الاجتماعية الاخرى .

والذين تحدثوا عن صباباتهم .. كانت تعابيرهم خجلى مرتعشـــة ، تشى باستحيائهم من الخوض فى مثل هذا الموضوع .. ولكن شـــعراءنا الشبان .. قد خرجوا على هذه القاعدة ، وتحرروا من هذا الحصـــار الذى ضرب على شعرنا وجعله يعيش فى دائرة ضيقة . لقد أعلنوا ثورتهم عـلى

هذا المفهوم الذى لا يقره الفن .. الفن الذى يأبى التقيد ، ولا يعيش الا في الهواء الطلق ، والأجواء الرحبة الحـــرة ، والآفاق المترامية .. غير المحدودة ، خرج شعراؤنا الشبان عن هذا الجمود ، وتحـــدثوا عن الحب والغرام . وليس هذا وجه الامتياز فى شعرهم ، بل : ان الامتياز .. هو ربطهم هذه التجربة بتجربة شعبهم ونضاله الجبار من أجل الحرية. ربطوا الحب بالحرب والثورة ، ربطوا عواطفهم بعواطف شعبهم ، ووفوا لانفسهم ولشعبهم .

ومن هؤلاء الشعراء « سعد الله » و « صالح الخرفى » . فقد تحـدثا عن الحب دون مواربة أو تقية . ويبدو ان « سعد الله » كان أسبق شعرائنا الشباب الى التغزل وذكر الأحبه . فقد نشر عدة قصائد ، البعض منهــا قبل الثورة ، وشعره .. فى هذه الفترة .. كان (غائما) ، أعنى مزيجا من القديم .. كما فى قصيدته : (الجمال الحالم) و « أطيـــاف » . وهو الى التقليد أقرب منه الى التجديد ، ويقول فى مطلع القصيدة الاولى :

اضفى الوجـود مداك فى الالوان وجلاك معرض للخلود الهـــانى
تجثو الحقائق من ســـموك ركعا وتفيض فيك جــــداول الايمان

ويقول فى مطلع الثانية :

ذاك طيف الهوى واحـــلام انسى ام خيـــال الجوى واشباح بؤسى
هذى جنـــة الحيـــاة وهذى روضة الموت فى سبيل التاسى

فهذه التعابير ـ تجثو الحقائق ركعا ـ خيال الجوى ـ هذه جنـــة الحياة ـ تعابير يبدو عليها التكلف والاضطراب . ولا تدل على أن الشاعر قد ملك ناصية القول . وهذه هى السمة التى تغلب على الشـــاعر فى أول حياته من قول الشعر . ولكن « سعد الله » قد تطور فى قصائده الجديدة الاخرى التى تبرهن على أنه أخذ يرتقى بسلم الشعر الحقيقى ، سواء منهــا ما كان فى الغزل أو فى غيره من الاغراض الاخرى ، ففى قصيدته : (ثائر وحب) التى تحدث فيها على لسان ثائر فى الجبل ، ترك محبوبته ليلتحق بالجبال ، يكافح مع اخوانه ويجاهد أعداء بلاده ، هذا الثائر الذى لم ينس حبيبته وحبه .. وهو فى وسط المعركة :

أوراس والـــدماء والعـــرق
وصــفحة الســـماء والغسق
والأفق المحموم راعف حنق
كـــانه وجـــــودى القلـــق
قد ظمئت عيـــونه الى الفلق
وســـال من أطرافه دم الشفق
ونجمه من الشمال تحترق
كقلبى الـــذى يـــدق
بذكـــرك العبـــق
حبيبتى ..

ثم يتابع الشاعر ذكر المناظر الاخرى التى يعيش بينها الثـائر . يذكر الاطلس ، وغابة البلوط ، والنهر ، والضفة الخرساء * والصخر المنتشرة ، ثم ... صوت المحبوبة الذى لم يضع بين هذه الاشياء كلها وذلك الحب النضر الذي يذكره لحبيبته .

والاطلس الانوف والبطاح
محمرة الخدود بالجراح
وغابة البلوط كالاشباح
ترقصها عواصف الرياح
ثائرة مهتاجة الكفاح
والنهر والغيوم والسمر
والضفة الخرساء والصخر
منتشر .. وزائر القمر
يطل فى حذر
من كوة مطموسة البصر
وصوتك الحلو النغم
فى مسمعى كرعشة الحلم
كخفقة الصباح المنتظر
وحبنا النضر
حبيبتى ..

ويستمر الشاعر فى هذا النغم العذب ، وفى هذا الايقاع الجميل يعبر عن الحب والثورة .. هذه الثورة التى زحفت فيها الجموع فى عزم وقوة ، رافعة العلم .. فى شموخ الى الغد الباسم المنشود .

وهذى الجموع الزاحفة
بعزمة كالعاصفة
خفاقة البنود
الى الغد المنشود

هذه بعض الفقرات من هذه القصيدة الرائعة التى تبين الفرق بين «سعد الله» فى أول الطريق ، ثم وهو يرتقى سلم الشعر الحق . ان هذه الحشود والصور البيانية الاخاذة من مثل «الأفق المحموم » «الراعف الحنق» الذى يعبر عن الدم والثورة ، وهذه «البطاح ... محمرة الخدود بالجراح» وهذه « الغابات .. ثائرة مهتاجة الكفاح » .. كل هذه .. صور جديدة فى شعرنا الحديث انها بداية طيبة لأديب عربى فى الجزائر ، ستزدهر ، وسيثمر ثمرة طيبة .

وهكذا نرى ان شعراءنا قد ربطوا الحب بالكفاح ، وخرجوا من دائرة التقليد السخيف الى مجالات أرحب وأجمل . فلم نعد نسمع البكاء والنحيب والتأوه المريض الذى «مرض» به شعراؤنا عندما يتحدثون عن صباباتهم وأحلام صباهم .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر شاب آخر ، هو « صالح الخرفى »

قصيدة اعجبت بها جدا . ووجدت فيها ما افتقدته فى الشعر الجزائرى من نغمة حلوة شجية ، ونبرة عذبة رقيقة ، وموسيقى تهز النفوس الشفافة الحساسة قصيدة ربط فيها الشاعر بين الحب والثورة .. حبيبة تحن الى عش الغرام الذى بات خاويا مرعبا بعد أن فارقه الحبيب الى ذرى الجبال .. هى قصيدة (نداء الضمير) التى تجعلك تعطف على هذه الحبيبة التى تحن الى حبيبها ، وقد أرقها هذا الحنين ، وأضناها الشوق الى فارسها الثائر :

يا حبيبى . ذكريات الأمس لم تبرح خيالى
كيف تغفو مقلتى عن حبنا عبر الليالى

وهى تستعطف حبيبها وترجوه ألا يلومها اذا ما فرق الزمن بينهما فهى لا زالت على الحب والوفاء :

لا تلمنى ان ترامت بى أمواج البعاد .
لا تلمنى ، لم يزل يخفق للحب فؤادى .

فهذا القلب الذى يخفق بالحب ، قد اهتز كذلك الى نداءات الأحرار من أبناء العروبة الذين رفعوا راية النضال :

غير أن القلب هزته نداءات شجية .
صعدتها فى دجى الليل قلوب عربية .

ووراء هذه النداءات ، وهذه الاصوات ، رأت أعلام النصر تخفق ، فوهبت حبها قربانا للجزائر :

وتراءت لى وراء الصوت اعلام البشائر
فوهبت الحب قربانا وبايعت الجزائر

فقد كانت الجزائر بالأمس ربعا خصبا لذكريات الحب المعطرة ، ولكنها اليوم أصبحت مأوى ذئاب جائعة الى الدم ، تكدر صفو الحب والحياة :

يا حبيبى ربعنا بالأمس ربع الذكريات .
انه مأوى ذئاب كدرت صفو الحياة

هذا الربع الذى كان عشا لتناجى ، وأنسا ونعيما ! امسى اليوم نارا وجحيما :

كان عشنا للتناجى كان انسا ونعيما
ثم أمسى للرؤى الغضة نارا وجحيما

وكم فرش الحبيبان هذا العش بالورود .. ونثرا فوقه الزهور .. وكم بنيا لأحلامهما وحبهما من قصور . ولكن الاحلام والأمانى .. بددتها هذه الصرخة المرعبة صرخة : الحرب والدم ، فاستحال الورد : شوكا ، ودماء ، وضحايا :

يا حبيبى كم فرشنا الربع وردا وزهورا

كم بنينـــا من هوانا لأمانينـــا قصورا
فتعالت صرخة الرعب بأشـــباح المنـايا
فاستحال الورد شوكا ودماء وضـــحايا

وهي لم تخن حبها لثائرها المعبود ، بيد أن حبها انقلب الى ثورة بين الضلوع على هذا العدو الاجنبى ، انها ما زالت تحب فارسها .. وهو يقف كالنسر فوق الاطلس الشامخ :

يا حبيبي لم اخن عهـــدى ولا خنت هوايا
غـــير ان الحب أمسى ثورة بين الحنـايا
لك حبى في ذرى الاطلس فى تلك الروابى
فهنـــاك الأفق الرحب لاحـــلام الشباب

انها تحتفظ بحبها حتى تلقى محبوبها ..وقد عم البشر أرض الجزائر وبدا فجر انتصـــارها .. وقد غمر الكون بتباشيره واضوائه وعندئذ ستعانق حبيبها الثائر ، ويبنيان عشهما .. فى ظل تحرير الجزائر :

لك حبى يوم تعلو بســـمة النصر ثرانا
ويذيب الليـــــل والآلام بحر من دمانا
سوف القاك مع النصر وأفراح البشــائر
سوف نبني عشنا فى ظل تحرير الجزائر

وأنا لا أستطيع أن أخفى اعجابى بهذه القصيدة التى صورت أجمـل تصوير حياة حبيبين فرقت بينهما الحرب ، وقضت على أحـــلامهما التى عاشا عليها زمنا طويلا . وأنها قصيدة ، بل : قصة انســـانية رائعة ، قصة فتاة وفتى قد نعما بالحب فترة .. ثم اذ بهما يجدان نفسيهما وقد تفرقا .. تفرقا من أجل هدف سام ، ومن أجل تحرير وطنهما واســتحال ربع ذكرياتهما الى خراب ، تنعق فيه غربان الشؤم ، وتعبث فيه فسادا .. ذئاب أجنبية مسعورة .

هذه بعض النماذج التى تصور الحب فى الثورة ، أو ثورة الحب .. وهى شىء جديد لم نألفه فى شعرنا الجزائرى الحديث . ولكنها الثورة التى غيرت مفاهيم كثيرة ، ومنها مفهوم الحب والغزل ، وحـــررت الافكار من القوالب الجامدة ، سواء فى التعبير أو المضمون . ومع هذا فلا زلنـــا نحس بأن شعرنا يحتاج الى مثل هذه اللمسات الرقيقة ، والى هذه الخفقات الحلوة الجذابة ، والى هذه الالتفاتات الانسانية الوديعة ، وعسى أن يتدارك شعراؤنا هذا النقص ، ولا ينقصهم سوى الاهتمام ، فالمواهب متوافرة ، والتجربة أمامهم ضخمة تشمل شعبا كاملا يحب ويتألم ، وهم جـــديرون بأن يعبروا عن حبه وآلامه ، وعن عواطفه وأحلامه ، وعن آدميته وانسانيته وهم مسئولون عن ذلك الى حد كبير .

وهكذا رأينا ــ فى دراستنا لشعر الثـــورة ــ كيف أنه تطور تطورا محسوسا من ناحية التعبير والمحتوى .. معا . فقد ظهرت فيـــه قوالب جديدة ، تنزع الى التحرر فى التعبير . والتحرر فى الصياغة ، والابتعاد

عن الاساليب الجامدة التى سيطرت على الشعر زمنا طويلا ، أساليب أشبه بالجثث المحنطة ، والاثواب المرقعة .

اختفت الطنطنة الفارغة ، وظهرت الثورة ... حتى فى التعبير نفسه، التعبير الذى يهدف الى الاصالة والعمق ، والى الأداء الفنى الصحيح ، والذى يقرب شعرنا من قمه الفن الجميل الذى يسعى الى المتعه العقلية والذهنية والعاطفية . وقد يكون شعرنا لا زال بعد .. لم يصل الى الذروة الفنية . ولكنه يسعى جاهدا ليصل اليها مع طول الزمن . ومع طول التجربة والمران . فقد حطم القوقعة التى كانت تضرب بينه وبين حياة الفن حجابا صفيقا ، وخرج الى الدنيا الرحبه الواسعة ليأخذ ويتطعم من هذه التجارب الجديدة التى عرفها غيرنا ، ووصل فيها الى مذاهب جديدة ، وفنون جديدة ، وألوان من الفن الجميل الذى يهدف الى الحق والخير والجمال .

كما انه من ناحيه الموضوع أخذ يبحث عن أشياء جديدة . أخذ يبحث عنها ليجرب حظه فيها . وبدت نظرته أكثر شمولا واتساعا عن ذى قبل . بدأ يربط بين التجربة الذاتية والتجربة الشعبية ثم التجربة الانسانية . كما تعددت أغراض الشعر ونواحيه . نتيجة للتجربة الثورية الفذةالتى يعيشها ... شعبنا ... منذ سبع سنين .

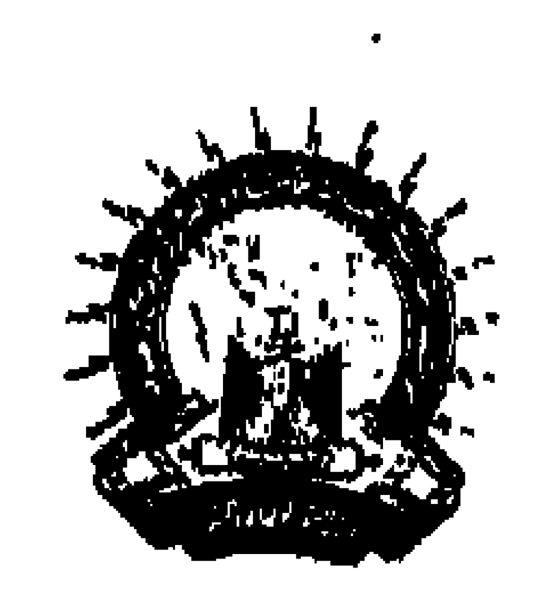
هذه التجربة شملت كل نواحى المجتمع ، وهزت كيان الشعب من الاعماق بكل طبقاته وأفراده . فكان من الطبيعى ـ بل من الاكيد ـ أن يلتفت شعر الثورة الى ما فى هذه الثورة من عمق ، وشمول ، ومثالية ، وقيم جديدة . وكان من الضرورى ألا يبقى محصورا بين جدران السياسة فيسير وراءها ـ يغنى لها وحدها دون أن يلتفت الى المنابع الاخرى التى يزخر بها شعبنا فى هذه المرحلة الحاسمة من حياته وتطوره التاريخى الهائل . وقد مرت بنا الشواهد على هذا فلا داعى لاعادتها مرة أخرى .

بيد أنه لا يفهم من هذا : ان الشعر الثورى قد بلغ مرحلة النضج التام والاكتمال الفنى الكامل . بل انه لا بد من جهود أخرى تبذل فى هذا السبيل ، حتى تبلغ مستوى ما بلغه الشعر فى بعض البلدان العربية التى سبقتنا فى هذا المضمار .

هناك ملامح للشعر الثورى عندنا ... تنقصها الخبرة الفنية ، والاداء التكنيكي للقصيدة ، وبقدر ماتنقصنا هذه الخبرة ... تزخر عندنا التجربة الحية كاملة ، فأغلب شعرائنا عاشوا تجارب شعبهم ولهم رصيد كبير من هذه التجارب ، فلا ينقصهم سوى التعبير عن هذه التجارب بأسلوب جديد يتماشى وجدة ثورتنا الخلاقة المبدعة . والشعب الذى أتى بالأعاجيب فى ميادين الكفاح والنضال ... جدير بأن يأتى بالأعجب فى ميادين الفكر والادب والثقافة . وأنا لا أتكهن هنا عندما أقول : انه فى المستقبل القريب سنشاهد أدبا خلاقا .. بأتم معنى الكلمة عندنا ، سنشاهد أدبا عربيا جديدا فى الجزائر ... يسهم فى دعم الادب العربى الثورى الحديث ..

تم بحمد الله

فهرس الموضوعات



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبية - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ١٧٨ الثمن ١٠ قروش